

مجلة جامعة

تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

أيُّها القرَّاء الكرام

نرحِّب بكلِّ مقالٍ علميٍّ مفيد

ونسعَد بكلِّ نَقْدٍ هادفٍ سديدٍ.

فمجلة «**الإصلاح**»

وسيلة لنشر العلم النَّافع

للمراسلات:

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

حي دوزي، قطعة (01)، رقم (06) باب الزوار ـ الجزائر

ص ب 22 مكرر ـ 16027

الهاتف والفاكس: 63 94 51 (021)

للمراسلات الإلكترونية:

darelfadhila@maktoob.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ بالله منْ شرورِ أنْفُسِنَا ومِنْ سَيِّئَاتِ أعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له.

وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ١﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ الله، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وَكُلَّ ضَلاَلَةٍ فِي النَّارِ.

اقرأ في هذا العدد...

الإيمان صمام الأمان

الحمد لله ربِّ العالمين؛ وبعد:

إنَّ ممَّا لا يستريب فيه أحدٌ أنَّ الأمَّة الإسلاميَّة تمرُّ بحقبة زمنيَّة لا تُحسد عليها البتَّة، لما اعتراها من الضّعف والذِّلَّة والهوان أمام أمم الكفر والطُّغيان وعبَّاد الصُّلبان، حتَّى كدنا نلمس ذلك لمس اليد، ويشعر به أحدنا وهو في بيته بين أهله وأولاده، ويجد لذلك غصَّة لا يستلذُّ معها نومًا ولا طعامًا، ولم يعد يحلو معها لذَّة ولا حياة، فلا تطلعك الأخبار يومًا بعد يوم إلَّا عن تعدٍّ أثيم على بلد من بلاد المسلمين، أو سلبٍ لخيراتهم وممتلكاتهم نهارًا جهارًا، أو تقتيلهم وترويعهم واضطهادهم ظلمًا وعدوانًا، أو نفث روح الاختلاف والتَّنازع والتَّقاتل والتَّناحر بينهم مكرًا وخداعًا، في سلسلة طويلة من الأخبار الفاجعة والصُّور المؤلمة.

وصار المسلمون عرضةً للإهانة ومثلًا للشَّماتة، ولم يعدْ يُخشى لهم جانبٌ، ولا يبالي بهم عدوٌّ ولا صاحبٌ، وما ذاك إلَّا لأنَّ الأمَّة التي شرَّفها الله بأكمل دين وأفضل نبيٍّ قد قَصَّرت في الأخذ بسبب العزِّ والتَّمكين، وتخلَّت عن طريق الرُّشد والهداية، وسلكت سُبلًا مختلفة عن سبيل الله فألقت بهم في أودية الغيِّ والرَّدى، وباتت الدُّنيا أكبر الهمِّ على النُّفوس، وخفتت شعلةُ الإيمان في القلوب، وصار النَّاس أكثر إيمانًا بما يرون ويشاهدون من الإيمان بما أُخْبِروا به عن طريق الوحي من الغيوب، وكأنَّهم لم يسمعوا إلى ربِّهم وهو يَعِدُهم الوعود الكثيرة من أنَّ سعادتهم في الدُّنيا والآخرة منوطةٌ بتحقيق الإيمان، قال الله تعالى: ﴿**وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾**﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [المنافقون: ٨]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾**﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿**فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾**﴾ [الصف: ١٤]، وقال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾**﴾ [آل عمران: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿**وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾**﴾ [الأنفال: ١٩]، وقال تعالى: ﴿**وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾**﴾ [النساء: ١٤١]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [الحج: ٣٨].

فهذه الآيات ضمانٌ من الله تعالى لمن حقَّق الإيمان الَّذي أمر الله به رسوله ﷺ علمًا وعملًا وحالًا، أن يحقِّق

له العلوَّ والعزَّة والنُّصرة والتَّأييد وولايته له ومعيَّته ودفاعه عنه في كلِّ الأزمنة وجميع الأمكنة، فبقدر ما يكون في الأمَّة من الإيمان يكون حظُّها ونصيبُها من هذِه الأمور، فإذا ضعُفت حقائقُ الإيمان وواجباتُه علمًا وعملًا، ظاهرًا وباطنًا، هَزُلت الأمَّة وذهبَ علوُّها وعزُّها، ولم يحالفها النَّصر والتَّأييد، ولم تَحْظَ بحفظ الله وعنايته وولايته، وفاتها دفاعُ الله عنها.

فمن أراد لهذه الأمَّة أن تستعيد مجدها وسموَّها، وتستردَّ رِيادَتَها وعافيتَها، فليدعُ أفرادَها ليأخذوا بالإيمان ويتحلَّوْا به علمًا وعملًا وحالًا، وأنَّ أيَّ سَعْيٍ لتحقيق المجدِ والرِّفعة على غير هذا المهيع القويم فهو سعي وراء السَّراب، ولن يجني صاحبُه غيرَ العذاب، وتأخيرَ النَّصر أحقابًا أخرى.

وليُعلم أنَّ من ظنَّ أنَّه حقَّق الإيمانَ ثمَّ لم يجد هذه الثِّمار الموعودِ بها، فليرجع على نفسِه باللَّوم والعِتاب؛ لأنَّه ليس أحد أصدق من الله قيلًا ولا أوفى منه عهدًا، وسنن الله لا تتبدَّل ولا تتحوَّل؛ والواجبُ الَّذي لا يجوزُ غيرُه إساءةُ الظَّنِّ بالنَّفس وحسن الظَّنِّ بالله عزَّ وجلَّ؛ وأنَّه إنَّما أُتِيَ من جهتين:

ـ إمَّا أنَّه قصَّرَ في بعض حقائق الإيمان الظَّاهرة والباطنة، من ترك واجب أو ارتكاب منهيٍّ، فكثيرٌ من النَّاس قد لا يُقَصِّر في شيء من أعمال الإيمان الظَّاهرة بالجوارح من صلاة وزكاة وصيام وغير ذلك؛ لكنَّه يُخِلُّ إخلالًا كبيرًا بأعمال الإيمان الباطنة القلبيَّة الَّتي هي أوجب من الأولى، فتجده يقدِّم على حبِّ الله تعالى غيرَه، ويرجو سِواه، ويخاف من دونه من خلقه، ولا يتوكَّل عليه...، فهذا لم يحقِّق الإيمان الَّذي يستحقُّ به تلك العطايا، حتَّى يداويَ ما به، ويتداركَ الأمرَ قبل فواتِه.

ـ وإمَّا أنَّه قصَّرَ في معرفة حقائق الإيمان التي جاء بها الرسولﷺ، فيُدخِلُ في الإيمان ما ليس منه، ويخرج منه ما هو من صميمه، فيُعَظِّم ما حقَّره الله ورسولهﷺ، ويحقِّر ما عظَّمه الله ورسوله ﷺ، ويوالي من يستحقُّ المعاداة ويعادي من يستحقُّ الموالاة، وغير ذلك من المخالفات لشريعة الرَّسولﷺ، فهذا أيضًا أنَّى يكون له النَّصر والتَّأييد؛ لأنَّ الله لا ينصر صاحب الباطل ولو اعتقد صاحبُه أنَّه على حقٍّ، وما يحصل له من الغلبة والقهر فإنَّما هو نصرٌ متوهمٌ مآله إلى ذلٍّ وهوانٍ، لقوله ﷺ: «**وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي**».

وبهذا يتبيَّن لك ـ أخي القارئ ـ أنَّ الإيمان المطلوب تحقيقه يقوم على ساقين: ساق الإخلاص لله تعالى، وساق المتابعة لرسول اللهﷺ.

نسأل الله تعالى حسن الختام، والموت على الإيمان.

التحرير

البيان في أخطاء الاستشهاد بآي القرآن

عز الدين رمضاني

من الأخطاء الشَّائعة الَّتي درج عليها كلام العامَّة، ولهجت بها ألسنة الوعَّاظ، وسطَّرتها بعض أقلام الكُتَّاب، الاستدلال أو الاستشهاد ببعض آيات القرآن أو جزءٍ منها في غير ما نزلت فيه[1]، أو وُضعت له حكمًا أو معنى، أو هما معًا، معتقِدين ـ جهلًا أو تجاهلًا ـ أنَّها نصٌّ في المسألة التي يريدون الاحتجاج لها ودليلٌ عليها، أو أنَّ تلك الآية لا تحتمل إلَّا معنى واحدًا ـ وقد يكون مرجوحًا ـ، أو يجوز أن تحمل على عدَّة معانٍ دون ترجيح معنًى على آخر مع وجود ما يقتضي التَّرجيح، وقد جرَّهم إلى مثل هذا الخطأ وقوفهم على ظاهر الألفاظ دون مراعاة المعاني، أو تجريدهم السِّياق من سوابقه ولواحقه، أو إهمالهم لما يجب علمه ممَّا يكون سببًا وسندًا في فهم الآية؛ كعلم أسباب النُّزول وعلم المكِّي والمدني وعلم المناسبات بين السُّور والآيات، واختيارهم المعنى بمجرد ما يتبادر إلى الذِّهن من معانٍ قد تكون صحيحة، من غير نظرٍ إلى المتكلِّم بها، وهو الله ـ عزَّ وجل ـ، ولا نظرٍ إلى المنزَّل عليه ولا إلى المخاطَب به.

وهذا من التَّساهل الَّذي أدَّى إلى الوقوع في أخطاء جِسام ومخالفات عِظام لا تليق بمقام أشرف الكلام، كاتِّخاذ بعض آياته أو جزءٍ منها مضربًا لمثل هازل، أو اقتباس خاطئ أو قياس باطل.

وصونًا لكتاب الله المنزَّل، وَرَفْعًا لِشَأْنِهِ وقَدْرِه، وتصحيحًا للمفاهيم والإطلاقات الخاطئة ارْتَأَيْتُ تبصيرَ القرَّاء على صفحات مجلَّتنا ببعض هذه الاستشهادات التي سِيقت في غير محلِّها، أو قِيلت من غير ضَبْطٍ لمبناها وفَهْمٍ لمعناها، ومِنَ الله أَسْتَمِدُّ العون والتَّوفيق والصَّواب والسَّداد.

* **الآية الأولى: قوله تعالى:** ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

ـ **وجه الخطأ**: قصر المعنى على تفسير مرجوح.

ذهب بعض المفسِّرين وتبعهم على ذلك كثير من الوعَّاظ والكتَّاب إلى أنَّ المراد بالكتاب في هذه الآية: «القرآن»، دون إشارة أو إيماءٍ إلى مرادٍ آخر يكون مشتركًا معه في المعنى، أو أقوى منه وأظهر، كتفسير الكتاب باللَّوح المحفوظ الذي هو المعنى الرَّاجح.

وقد اقتصر على اختيار القول بأنَّ المراد من الكتاب في هذه الآية هو القرآن جماعة من المفسِّرين كالسَّمعاني في «تفسيره» (٢/ ١٠١) وأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي أستاذ عصره في التَّفسير في كتابه «الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (١/ ٣٥٢) واكتفى الماوردي في تفسيره «النكت والعيون» (١/ ١١٣) بذكر تأويلين لمعنى الكتاب، أحدهما: إيجاب الأجل، والثَّاني: القرآن ونسبه إلى الجمهور، ولم يُشر إطلاقًا إلى أنَّه اللَّوح المحفوظ.

وممن رجَّح القول بأنَّه القرآن مع ذكره للقول الآخر ابن عطيَّة في «المحرَّر الوجيز» (٢/ ٢٩٠) وعبارته: «والكتاب: القرآن وهو الذي يقتضيه نظام المعنى في هذه الآيات» وهي نفس العبارة التي قالها الثَّعالبي صاحب «الجواهر الحسان» (١/ ٦٢٠) وعنه أخذها، وتبع ابن عطية في ذلك أبو حيَّان في تفسيره «البحر المحيط» (٤/ ١٢٦)، فقال بعد أن ذكر المعنى الأوَّل للكتاب ـ وهو اللَّوح المحفوظ ـ: «أو القرآن، وهو الذي يقتضيه سياق الآية».

ومن المتأخِّرين الَّذين قالوا بترجيح قول من قال بأنَّه القرآن: الآلوسي في «روح المعاني» (٧/ ١٤٤) وقد جزم به مستدلًّا له.

هذا ولم يُرجِّح القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ٤٢٠) عند ذكره للمعنيين (القرآن واللَّوح المحفوظ) أحد القولين، وإن كان يُفهم من سياقه ميله إلى أنَّه القرآن، ومثله الشَّوكاني في «فتح القدير» (٢/ ١١٤)، وصدِّيق حسن خان في «فتح البيان» (٤/ ١٣٦).

ـ **ترجيح القول في أنَّ المراد بالكتاب اللوح المحفوظ**:

أوَّلًا: ثبوته عن ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: فقد أخرج ابن جرير في «تفسيره» بتحقيق التُّركي (٩/ ٢٣٤) بسند حسن[٢] عن علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ ما تركنا شيئًا إلَّا قد كتبناه في أمِّ الكتاب.

وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٨٦) من طريق أبي صالح به، وعزاه السُّيوطي في «الدُّر المنثور» ـ تحقيق التركي (٦/ ٤٥) إلى ابن المنذر.

ثانيًا: هو قول بعض التَّابعين ممَّن اشتهر بالتَّفسير، ومنهم ابن زيد كما في «تفسير الطَّبري» ـ



تحقيق التركي (٩/ ٢٣٤)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٢٨٦)، وقتادة كما في «زاد المسير» لابن الجوزي (٣/ ٣٥)، و«الدُّرّ المنثور» للسُّيوطي ـ تحقيق التركي (٦/ ٤٥) ونسبه إلى عبد الرَّزَّاق وأبي الشَّيخ.

ثالثًا: اقتصار بعض مشاهير المفسِّرين على القول به دون غيره[٣].

١ ـ مقاتل بن سليمان في «تفسيره» (١/ ٣٤٥).

٢ ـ ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٣٢).

٣ ـ ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٨٦).

٤ ـ ابن أبي زمنين في «تفسير القرآن العزيز» (١/ ٦٧).

٥ ـ الثَّعلبي في «الكشف والبيان في تفسير القرآن» (٢/ ٥٣٢).

٦ ـ البغوي في «معالم التَّنزيل» (٢/ ٩٥).

٧ ـ الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٣٤٢).

٨ ـ ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٠).

٩ ـ القاسمي في «محاسن التَّأويل» (٣/ ٣٠٥).

رابعًا: ترجيح بعض المحقِّقين لهذا القول على الآخر؛ ونذكر منهم:

١ ـ ابن القيِّم في كتابه «شفاء العليل» (طبعة العبيكان) (١/ ١٦٤) فبعد إقراره للخلاف الوارد في معنى الكتاب؛ هل هو القرآن أو اللَّوح المحفوظ، رجَّح الثَّاني، وقال بأنَّه الأظهر في الآية، والسِّياق يدلُّ عليه.

٢ ـ السَّعدي في «تفسيره» (٢/ ٢٠) يفهم ذلك من بسطه القول في أنَّ المراد به اللَّوح المحفوظ، وأشار إلى المعنى الثَّاني بقوله: «ويحتمل أنَّ المراد بالكتاب هنا القرآن».

٣ ـ القاسمي في «محاسن التَّأويل» (٣/ ٣٠٧) قال تحت عنوان (تنبيهات): «السَّادس: ما بيَّنَّاه في معنى (الكتاب) من أنَّه اللَّوح المحفوظ في العرش، وعالم السَّماوات المشتمل على جميع أحوال المخلوقات على التَّفصيل التَّامِّ ـ هو الأظهر، لملاقاته للآية التي ذكرناها تأييدًا للنَّظائر القرآنية».

٤ ـ الأمين الشّنقيطي في «العذب النمير» (١/ ٢٧١) قال: «أكثر المحقِّقين على أنَّه اللَّوح المحفوظ».

خامسًا: حجَّة من نَصَر القول بأنَّه اللَّوح المحفوظ.

وقد عرض لبعض هذه الحجج العلَّامة ابن القيِّم في كتابه المذكور آنفًا، وسنسوقها بشيء من التَّصرُّف والتَّقديم والتَّأخير.

١ـ دلالة السِّياق عليه في الآية نفسها: فإنَّه تعالى قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ

﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

قال ابن القيِّم (١/ ١٦٤): «وهذا يتضمَّن أنَّها أممٌ أمثالنا في الخلق والرّزق والأجل والتَّقدير الأوَّل، وأنَّها لم تُخلقْ سُدًى، بل هي معبَّدة مذلَّلة، قد قدر خلقها وأجلها ورزقها وما تصير إليه، ثمَّ ذكر عاقبتها ومصيرها بعد فنائها، فقال: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨﴾ [الأنعام: ٣٨] فذكر مبدأها ونهايتها، وأدخل بين هاتين الحالتين قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾، أي كلّها قد كتبت وقدِّرت وأحصيت قبل أن توجد، فلا يناسب هذا ذكر كتاب الأمر والنَّهي، وإنَّما يناسب ذكر الكتاب الأول».

أقول: ومن القواعد في التَّفسير الَّتي تشهد لهذا المعنى الذي ذهب إليه ابن القيِّم أنَّه «إذا كان للاسم الواحد معانٍ عدَّة حُمل في كلِّ موضع على ما يقتضيه السِّياق»[٤] ولا يخفى أن من معاني الكتاب القرآن كما في مواضع كثيرة من القرآن، بل هو من أخص أسمائه، وأمَّا هنا في آية الأنعام فإنَّ السِّياق لا يدل عليه فلا يتعيَّن الجزم به، وعليه فإنَّ ما ادَّعاه الفخر الرَّازي في «تفسيره» (١٢/ ٢١٥) من أنَّ المراد بالكتاب في الآية هو القرآن وأنَّه الأظهر، بحجَّة أنَّ الألف واللَّام إذا دخلا على الاسم المفرد انصرف إلى المعهود السَّابق، والمعهود السَّابق من الكتاب عند المسلمين هو القرآن، فليس بمسلَّم، وأبعد من قول الرَّازي قولُ ابن عطيَّة وأبي حيَّان إذ ادَّعيا أنَّ سياق الآية يدُلُّ عليه ويقتضيه، وقد مرَّ.

وممَّن استبعد أن يكون لفظ الكتاب هنا القرآن الطَّاهر بن عاشور في «التَّحرير والتَّنوير» (٧/ ٢١٧) مع أنَّه لم يُشر إشارة صريحة إلى المعنى الرَّاجح الَّذي هو اللَّوح المحفوظ، واختار القول بأنَّ الكتاب هنا بمعنى المكتوب وهو المكنَّى عنه بالقلم، فقال في تفسيره: «وقيل: الكتاب القرآن، وهذا بعيد إذ لا مناسبة بالغرض على هذا التَّفسير».

٢ ـ دلالة السِّياق على المعنى في الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٧﴾ [الأنعام: ٣٧] والمراد بقوله ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ كما قال ابن كثير في «تفسيره»: (٣/ ٦٠) أي: «خارق على مقتضى ما كانوا يريدون وممَّا يتعنَّتون»، وهذا ينفي قول من قال إنَّ المراد بالآية المنزَّلة هو القرآن، ويرجِّح القول بأنَّه اللَّوح المحفوظ، ووجه التَّرجيح كما قال ابن القيِّم أنَّهم «لما سألوا الآية أخبرهم سبحانه بأنَّه لم يترك إنزالها لعدم قدرته على ذلك، فإنَّه قادر على ذلك، وإنَّما لم ينزِّلها لحكمته ورحمته بهم وإحسانه إليهم، إذ لو أنزلها على وفق



اقتراحهم لعوجلوا بالعقوبة إن لم يؤمنوا، ثمَّ ذكر ما يدلُّ على كمال قدرته بخلق الأمم العظيمة الَّتي لا يُحصي عددَها إلَّا هو، فمن قدر على خلق هذه الأمم مع اختلاف أجناسها وأنواعها وصفاتها وهيئاتها كيف يعجز عن إنزال آية! ثمَّ أخبر عن كمال قدرته وعلمه بأنَّ هؤلاء الأمم قد أحصاهم، وكتبهم، وقدَّر أرزاقهم وآجالهم وأحوالهم في كتاب لم يفرط فيه من شيء، ثمَّ يميتهم ثمَّ يحشرهم إليه ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: ٣٩] عن النَّظر والاعتبار الَّذي يؤدِّيهم إلى معرفة ربوبيَّته ووحدانيَّته وصدق رسله، ثمَّ أخبر أنَّ الآيات لا تستقلُّ بالهدى ولو أنزلها على وفق اقتراح البشر، بل الأمر كلُّه له ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٩)﴾ [الأنعام: ٣٩] فهو أظهر القولين والله أعلم»[٥].

وقد سقتُ كلام ابن القيِّم برُمَّته ليظهر تهافت ما ذكره الخفاجي في توهين قول من قال[٦]: «حمله (أي الكتاب في آية الأنعام) على القرآن لا يلائم ما قبله وما بعده»، حيث فنَّدَ هذا المعنى وهو صحيح ـ كما ترى ـ؛ فقال[٧]: «ويدفع بأنَّ المعنى لم نترك شيئًا من الحجج وغيرها إلَّا ذكرناه، فكيف يحتاج إلى آية أخرى ممَّا اقترحوه ويكذِّب بآياتنا».

وخلاصة القول في خاتمة هذا المقال هو بيان ترجيح قول من فسَّر الكتاب في الآية المذكورة آنفًا باللَّوح المحفوظ، وهو مدلول الآية المطابق كما عند المحقِّقين، لذا ينبغي التَّنبيه عليه والقول به عند الاستدلال بهذه الآية، وأنَّه المعتمد والمقدَّم على غيره، وعليه فلا يصحُّ أن تُقصر الآية على القول الآخر (وهو القرآن)، ومع ذلك فإنَّه لا بأس بالاستشهاد بها على صحَّة هذا المعنى المرجوح لتضمُّن القرآن الوصف المذكور «ما فرَّطنا» على ما ذكرنا في هامش البحث من جواز الاستشهاد بالآيات في غير ما نزلت فيه، وخاصَّة إذا انضاف إلى ذلك قول بعض أهل العلم به، واقتصار بعضهم الآخر عليه فقط كما سبق بيانه، والعلم عند الله تعالى.

---

(١) الاستشهاد بالآيات في غير ما نزلت فيه وتنزيل آيات الكفَّار على المؤمنين، جائز في الجملة إذا رُوعيت بعض الشُّروط والضَّوابط الَّتي لابدَّ منها، انظر بحثًا نفيسًا في «مقالات في علوم القرآن وأصول التَّفسير» للدُّكتور مساعد بن سليمان الطيَّار من (ص٢٦٩ إلى ٢٧٦).

(٢) «التفسير الصَّحيح» للدُّكتور حكمت بشير ياسين (٢/ ٢٣٧).

(٣) لم أقصد الاستقصاء والحصر.

(٤) «محاسن التَّأويل» للقاسمي (١/ ٢٦٢) و«قواعد التَّفسير» لعثمان السَّبت (١/ ٤٢٢).

(٥) «شفاء العليل» (ط/ العبيكان) (١/ ١٦٥و ١٦٦).

(٦) «محاسن التَّأويل» للقاسمي (٣/ ٣٠٧).

(٧) «محاسن التَّأويل» للقاسمي (٣/ ٣٠٧).

لا تسبُّوا أصحابي...

توفيق عمروني

روى البخاري (٣٣٩٧) ومسلم (٤٦١١) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي؛ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ».

إنَّ خير النَّاس وأفضلهم بعد الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ هم صحابة رسول الله ﷺ الأخيار الذين اصطفاهم الله لصحبة نبيِّه، ونقل دينه، وحفظ شريعته، فكانوا أعمق النَّاس علمًا، وأبرَّهم قلوبًا، وأقلَّهم تكلُّفًا، وأزكاهم نفوسًا، وأصدقهم لهجةً، بذلوا النَّفس والنَّفيس في نصرة النَّبيِّ الكريم ﷺ، وإقامة الدِّين، ورفع راية التَّوحيد، وتعبيد النَّاس لربِّ العالمين، فضلُهم عظيم، وخيرهم كبير، وهم كما قال ﷺ: «**خَيرُ النَّاسِ قَرْنِي**»[1].

قال النَّوويُّ: «اتَّفقَ العُلماءُ على أنَّ خَيرَ القُرونِ قَرنُه ﷺ، والمرادُ أصحَابه»[2].

كما حَظوا عند ربِّهم الجليلِ بالتَّزكيةِ والإكرامِ والتَّبجيل، فذكرَهُم بأجملِ الخلالِ وأحسنِ الصِّفاتِ في محكَمِ التَّنزيلِ، وأثْنى علَيْهم بالجمِيل، ووَعَدهم بالنَّعِيم المقيم، والجنَّاتِ والثَّوابِ الجزيل، قال تعالى: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)**﴾ [التوبة: ١٠٠].

وجاءت أيضًا نصوص السُّنَّة تدلُّ الأمَّة على معرفة قدر هؤلاء الصَّحابة رضي الله عنهم وحفظ أعراضهم وتوقيرهم، وحبِّهم والانتصارِ لهم، وتجنُّب بغضهِم وسبِّهم وتنقيصِهم؛ بل علَّق النبيُّ ﷺ الإيمانَ على ذلك، ففي البخاري (١٦) ومسلم (١٠٨) قال ﷺ: «**آيَةُ الإِيمانِ حُبُّ الأَنْصَارِ، وآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ**».

وفي هذا الحديثِ الذي صدَّرنا به المقالةَ نهى النَّبيُّ ﷺ عن سَبِّ صحابتِه الكِرام، والنَّهيُ يقتضِي



التَّحريمَ، فلا يجوزُ لمسلمٍ أن يتكلَّمَ في أحدٍ من الصَّحابة بطعنٍ أو غَمزٍ أو لَـمزٍ أو تنقيصٍ أو تعريضٍ بتجريحٍ أو قدحٍ في عدالتِه ودينِه مطلقًا بأيِّ سببٍ من الأسباب، وبأيِّ صورةٍ من الصُّورِ، وما حصل منهم من الاقتتال هم فيه مجتهدون، المصيبُ منهم مأجورٌ، والمخطئُ منهم معذور وذنبُه مغفورٌ، والطَّاعنُ فيهم مأزورٌ غيرُ مأجور.

قال النَّووي: «وَاعْلَمْ أَنَّ سَبَّ الصَّحَابَة رضي الله عنهم حَرَام مِنْ فَوَاحِش الْمُحَرَّمَات، سَوَاء مَنْ لَابَسَ الفِتَن مِنْهُمْ وَغَيْره؛ لِأَنَّهُمْ مُجْتَهِدُونَ فِي تِلْكَ الحُرُوب، مُتَأَوِّلُونَ»[٣].

قال الحافظ في «الفتح» (١٣/ ٣٤): «**وَاتَّفَقَ أَهْل السُّنَّة عَلَى وُجُوب مَنْع الطَّعْن عَلَى أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَة بِسَبَبِ مَا وَقَعَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ**، وَلَوْ عُرِفَ الْمُحِقّ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي تِلْكَ الْحُرُوب إِلَّا عَنِ اجْتِهَاد وَقَدْ عَفَا اللهُ تَعَالَى عَنْ الْمُخْطِئِ فِي الاجْتِهَاد؛ بَلْ ثَبَتَ أَنَّهُ يُؤْجَر أَجْرًا وَاحِدًا وَأَنَّ الْمُصِيب يُؤْجَر أَجْرَيْنِ».

والسَّبُّ: هو الكلامُ الذي يقصد به الانتقاص والاستخفاف، وهو ما يفهم منه السَّبُّ في عقول النَّاس على اختلاف اعتقاداتهم كاللَّعن والتَّقبيح ونحوه[٤].

فلا يحلُّ لأحدٍ أن يسبَّ أحدًا من الصَّحابة جميعهم الصِّغار منهم والكبار، من شهد منهم الوقائع ومن لم يشهد، المتقدِّم منهم والمتأخِّر، كلُّهم سواءٌ في عدمِ جوازِ التَّعرض لجَنابهم بالسَّبِّ أو التَّنقُّص.

ويمكن إجمال حكم سبِّ الصَّحابة في ثلاثة أقسام:

الأول: أن يسبَّهم بما يقتضي كفرَ أكثرِهم وردَّتهم، أو أنَّ عامَّتَهم فسقُوا، فهذا لا ريب في كفره؛ لأنَّ مقالته تكذيب صريح لنصِّ القرآن الَّذي فيه الثَّناء عليهم والتَّرضِّي عنهم، وأنَّ لازمه تكفير وتفسيق نقلَة الشَّريعة.

الثاني: أنْ يسبَّ بعضهم أو أحدًا منهم سبًّا يطعن في دينه وعدالته باللَّعن والتَّقبيح، ففي تكفيره قولان لأهل العلم؛ والقائلون بعدم كفره أجمعوا على أنَّه فاسق، لارتكابه كبيرة من كبائر الذُّنوب، يستحقُّ عليه التَّعزير والتَّأديب.

قال الهيتمي: «أجمع القائلون بعدم تكفير من سبَّ الصَّحابة على أنَّهم فسَّاق»[٥].

الثَّالث: أنْ يسبَّهم بما لا يقدح في دينهم كالجبن والبخل وقلَّة العلم والذَّكاء وضعف الرأي، وعدم الزُّهد في الدُّنيا ونحو ذلك، فهذا لم يكفِّره العلماء بمجرَّد ذلك؛ لكنَّه يستحقُّ التَّعزير والتَّأديب.

كما أنَّهم اتَّفقوا على كفر من رمى عائشة رضي الله عنها بما برَّأها الله منه[٦].

فالَّذي يُطلق العَنانَ لِلِسانِه يَفْري في أعْراضهم



رضي الله عنهم سبًّا وتجديعًا وتجريحًا وتنقيصًا إنَّما يطعن في القرآن الكريم؛ لأنَّه ما جاء ذكر الصَّحابة في الكتاب العزيز إلَّا مدحًا وثناءً وتزكيةً، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، واتَّفق العلماء على أنَّ المقصود الأوَّل من هذه الآية هم الصَّحابة رضي الله عنهم.

وقال تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]، قال ابن تيمية: «قال طائفة من السَّلف: هم أصحاب محمد ﷺ؛ ولا ريبَ أنَّهم أفضلُ المصْطَفَين من هذِهِ الأمَّةِ»(٧).

وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فرضي الله تعالى عن السَّابقين من غير شرط، ولم يرض عن التَّابعين لهم إلَّا أن يتَّبعوهم بإحسان، وهذه الآية من أصرح الأدلَّة على تحريم سبِّ هؤلاء الأصحاب الكرام، فلم يذكرهم الله تعالى بمثل هذا الثَّناء الجميل وهذا الوعد الجزيل إلَّا لعلمه أنَّه لن يصدر منهم ما يناقض ذلك أو ما يجلب سخط الرَّبِّ عزَّ وجلَّ عليهم، فدلَّ ذلك على أنَّهم عاشوا وماتوا وهم مرضيٌّ عنهم.

وقال الله تعالى فيهم: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

قال الإمامُ مالك ـ رحمه الله ـ: «من أصبحَ في قلبِه غَيْظٌ عَلى أحَدٍ مِن أصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ فقد أصَابَتْه الآية»(٨).

قال القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ مُعلِّقا عليه: «قلتُ: لقد أحسنَ مالكٌ في مقالته وأصابَ في تأويله؛ فمن نَقص واحدًا منهم أو طَعن عليه في روايته فقد ردَّ على الله رَبِّ العالمين، وأبطل شرائع المسلمين»(٩).

ومع هذه الآياتِ كلِّها وغيرها كثير ـ مما لم أورده خشية الإطالة ـ يقفُ هؤلاء الشِّيعةُ الرَّوافضُ في وجهها رادِّينَ لُمحتواها، مخالفينَ لمقتضاها، يزعمون ـ وبئس ما زعموا ـ أنَّ هذا المدحَ والثَّناءَ عليهم كان قبلَ رِدَّتهم؛ فيُقال لهم: وهل يُثني اللهُ تعالى كلَّ هذا



الثَّناء ويزكِّي كلَّ هذه التَّزكية من سَبق في علمِه أنَّه سيرتَدُّ قبل موتِه؟

ولكن كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]

لأجل هذا كان سابُّ الصَّحابةِ رضي الله عنهم على شفا هَلَكَة، وخَطرٍ عَظيمٍ، ومتنكبٍ لصراط الله المستقيم؛ لأنَّ صنيعَه يُنبئُ عن سُوء الطَّويةِ وخُبث السَّريرة، ففي كتاب «السُّنَّة» للخلَّال (٦٩٥) أنَّ الإمام أحمد سُئل عن رجل انتقص معاوية وعَمْرو ابن العاص؛ أيقال له: رافضيٌّ؟ فقال: «إنَّه لم يجترئ عليهما إلَّا وله خَبيئَةُ سُوءٍ، مَا انتقَصَ أحَدٌ أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ إلَّا لَهُ داخِلَةُ سُوءٍ».

وقال أبو نعيم الأصفهاني في كتابه «الإمامة والرَّد على الرَّافضة» (ص٣٧٦): «فمن سبَّهم وأبغضَهم وحمَلَ ما كانَ من تأويلِهم وحُروبِهم على غيرِ الجميلِ الحسَنِ، فهو العَادِلُ عَن أمرِ الله تعالى وتأديبِه ووَصِيَّتِه فيهم، ولا يبسُط لسانَه فيهم إلاَّ مِن سُوء طويَّتِه في النَّبيِّ ﷺ وصَحابته والإسلامِ والمسلمين».

وقال الإمام أحمد: «إذا رأيتَ أحدًا يذكُر أصحابَ رسُولِ الله ﷺ بسُوءٍ فاتَّهِمْهُ على الإسلاَمِ»(١٠).

فالطَّعن في الصَّحابة رضي الله عنهم إنَّما هو طعنٌ في الله ورسوله وشريعته؛ فيكون طعنًا في الله؛ لأنَّه طعنٌ في حكمتِه واختيارِه؛ حيثُ اختار لأفضلِ خلقِه ﷺ أسوأَ خلقه ـ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ـ؛ وطعنًا في النَّبي ﷺ؛ لأنَّهم أصحابُه، والمرءُ على دينِ خليلِه، والإنسان يُعرف صلاحُه أو فسادُه بقرينِه؛ وطعنًا في الشَّريعة؛ لأنَّهم الواسطةُ بيننا وبين رسول الله ﷺ في نقلِ الشَّريعة، وإذا كانوا بهذِه المثابةِ، فلا يُوثَقُ بهذه الشَّريعة؛ لأنَّ الطَّعنَ في النَّاقلِ طعنٌ في المنقُولِ.

لأجل هذا كلِّه استوجبَ سابُّ الصَّحابة اللَّعنَ على نفسِه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالملاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِين**»(١١).

والصحابيُّ: كما عرّفه العلماء المحقّقون «هو كلُّ من لَقِيَ النَّبيَّ ﷺ مؤمنًا بِه، وماتَ على الإسلاَمِ»(١٢)، فالصُّحبةُ مَرتبةٌ شريفةٌ ومَنزلةٌ مُنيفَةٌ تتحَقَّقُ بمجرَّدِ رُؤيَةِ النَّبيِّ ﷺ مرَّةً واحدةً، فهذا اللِّقاءُ الواحدُ كافٍ في أن يُدخِل صاحبَه في عِداد الصَّحابة رضي الله عنهم، قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «كُلُّ مَنْ رَأَى رَسُولَ اللهِ ﷺ مُؤْمِنًا به فَلَهُ مِنْ الصُّحْبَةِ بِقَدْرِ ذَلِك»، ففي «الصَّحيحين» عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَغْزُو فِئَامٌ مِنْ النَّاسِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: فِيكُمْ مَنْ رَأَى رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ؛ فَيُفْتَحُ لَهُمْ؛ ثُمَّ يَغْزُو فِئَامٌ مِنْ النَّاسِ، فَيُقَالُ لَهُمْ:**

فِيكُمْ مَنْ رَأَى مَنْ صَحِبَ رَسُولَ الله ﷺ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ؛ فَيُفْتَحُ لَهُمْ؛ ثُمَّ يَغْزُو فِئَامٌ مِنْ النَّاسِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ فِيكُمْ مَنْ رَأَى مَنْ صَحِبَ مَنْ صَحِبَ رَسُولَ الله ﷺ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ؛ فَيُفْتَحُ لَهُمْ».

فربط حصول الفتح للمسلمين بسبب أنَّ جيشَهم يحوي في صفوفِه من رأى النَّبي ﷺ مؤمنًا به، وهذا من أقوى ما يستدلُّ به على شرف الرُّؤية وفضلها، وأنَّ بمجرَّد هذه الرُّؤية تَثْبُتُ الصُّحبة، ففي الأوَّل قال: «فِيكُمْ مَنْ رَأَى رَسُولَ الله ﷺ؟» ثمَّ يقال لمن بعدهم: «فِيكُمْ مَنْ رَأَى مَنْ صَحِبَ رَسُولَ الله ﷺ؟» فأثبت لهم الصُّحبة بمجرَّد الرُّؤية.

قال النَّوويُّ: «الصَّحِيح الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُور أَنَّ كُلّ مُسْلِمٍ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ وَلَوْ سَاعَةً فَهُوَ مِنْ أَصْحَابه»[13].

وعلى هذا جرى عملُ المحقِّقين من أئمَّةِ الحديثِ وأساطينِ الجرحِ والتَّعديل يحرصونَ أشدَّ الحرصِ على من ثبتَت رؤيتُه للنَّبيِّ ﷺ، أن يحلُّوا ترجمَته بقولهم: «لهُ رُؤيةٌ» فيكون بذلك صحابيًّا، ومعنى ذلك أنَّهم كُفُوا مُؤنةَ البحث عن عدالته؛ لثبوت عدالتهم ﷺ بالكتاب والسُّنَّة والإجماع وصحيح النَّظر؛ قال الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (١/ ١٧): «واتَّفق أهلُ السُّنَّةِ على أنَّ الجَميعَ عُدُولٌ، ولمْ يُخَالِفْ في ذلكَ إلَّا شُذوذٌ منَ الْمُبْتَدِعَة».

إلَّا أنَّه ينبغي التَّنبيه إلى أنَّ تعديلهم ﷺ مطلقًا لا يعني عصمتهم، بل يجوز عليهم الذُّنوب في الجملة، وقد يصدر منهم الخطأ في الاجتهاد؛ لكن ذلك لا يقدح في عدالتهم ولا يُنْقِصُهَا، لِمُضِيِّ ثناء الله سبحانه عليهم مطلقًا، ولأنَّ بحرَ حَسناتهم غمر جميع ذلك؛ قال ابن تيمية: «ولهم من السَّوابقِ والفضائلِ ما يُوجب مغفرةَ ما يَصدُرُ منهم ـ إن صَدر ـ حتَّى إنَّه يُغفرُ لهُم من السَّيِّئاتِ ما لا يُغفر لمن بَعدَهم؛ لأنَّ لهم من الحسناتِ التي تمحُو السَّيِّئات ما ليسَ لمنْ بعدَهم»[14].

* ومما يستفاد من هذا الحديث أنَّ الصُّحبة تتفاوت وتتفاضل[15]، لأنَّه ثبت عند مسلم زيادة فيها سبب ورود الحديث، وهو أنَّه كَانَ بَيْنَ خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ وَبَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ شَيءٌ فَسَبَّهُ خَالِدٌ؛ فقال ﷺ لخالد ابن الوليد ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي**»، وقوله هذا ليس القصدُ منه نفي الصُّحبة عنه، وإنَّما أراد أن يُبيِّن أنَّ عبد الرَّحمن بن عوف ﷺ وأمثالَه أخصُّ بصحبتِه ﷺ، وأنَّهم امتَازُوا بأشياءَ لا يُمكنُ أن يُشاركَهُم غيرُهُم فيها كفَضْلِ السَّبْق والهجرة والإنفاق وغير ذلك.

فعبد الرَّحمن بن عوف ﷺ ممَّن أسلم وهاجر قديمًا وأحد العشرة المبشَّرين بالجنَّة، أمَّا خالد بن الوليد ﷺ وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة فهؤلاء



أسلموا في مدَّة الهدنة بعد الحديبية وقبل فتح مكَّة، فكانوا من المهاجرين التَّابعين لا من المهاجرين الأوَّلين.

ومن هُنا نعلم أنَّ الصَّحابةَ ﭫ يتفاضَلُون في صُحبتهم، فصحبة أبي بكر الصِّدِّيق ﭬ ليست كصحبة غيرِه؛ إذ هو في ذَروة سنام الصُّحبة وأعلى مراتبها، بل تميَّز وانفرد ﭬ عن سائر الصَّحابة، حتَّى خصَّه النبيُّ ﷺ بقوله: «**فهَلْ أنتُم تَارِكُو لي صَاحِبي**»(١٦)، ووصفه الله تعالى بذلك في قوله: ﴿**ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ**﴾ الآية [التوبة: ٤٠]؛ كما أنَّ صحبة الَّذين أسلموا قبل الفتح وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ليسوا في الرُّتبة كالَّذين تأخَّر إسلامهم ولم يسلموا إلَّا بعد الفتح وكلًّا وعد الله الحسنى، كما قال تعالى: ﴿**لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٠**﴾ [الحديد: ١٠].

* ومن فوائد هذا الحديث أنَّ منزلةَ الصُّحبة لا يَعْدِلها شيءٌ، لذا كان صاحبُها سابقًا لمن بعدَه ولو كان أكثرَ منهُ عمَلاً؛ قال النَّوويُّ: «وَفَضِيلَة الصُّحْبَة، وَلَوْ لَحْظَة لَا يُوازِيهَا عَمَل، وَلَا تُنَال دَرَجَتُهَا بِشَيْءٍ، وَالفَضَائِل لَا تُؤْخَذ بِقِيَاسٍ، ذَلِكَ فَضْل الله يُؤْتِيه مَنْ يَشَاء»(١٧).

وقال ابن تيمية: «قال غير واحد من الأئمَّة: إنَّ كلَّ من صحِبَ النَّبيَّ ﷺ أفضلُ ممَّن لم يَصحبه مطلقًا، وعيَّنوا ذلكَ في مِثلِ مُعاويةَ وعُمرَ بن عَبد العزيز مع أنَّهم مُعترفون بأنَّ سِيرةَ عُمر بن عبد العزيز أعدلُ من سِيرة مُعاوية، قالوا: لكن ما حصَل لهم بالصُّحبَة من الدَّرجة أمرٌ لا يُساويهِ ما يحصُل لغيرهم بعِلمه»(١٨).

ولذلك ردَّ السَّلفُ ـ رحمهم الله ـ على من أرادَ أن يَعقِدَ المفاضلَةَ بينَ الصَّحابيِّ وغيرِه ـ ممَّن تأخَّر عنهُ ـ بكلمَة قويَّةٍ حاسِمةٍ صدع بها سيِّدُ عُلماء زمانِه عبد الله ابن المبارك ـ رحمه الله ـ الَّذي كان يقولُ: «ترابٌ في أنفِ معاويةَ أفضلُ من عُمرَ بنِ عبدِ العزيز»(١٩).

فالعبدُ لو لَقيَ الله بكلِّ عمل من أعمال البرّ والخير الَّتي في وسع البشر أن يأتوا بها، فإنَّه لن يستطيعَ أن يبلغَ رتبةَ الصَّحابي ولا يُدانيه أبدًا؛ لأجل هذا عقَد النبيُّ ﷺ هذِه المقارَنة التي فيها تفاوتٌ عظيم وتباين كبير، إذ لا يختلف اثنان في أنَّ من أنفق مثل جبل أحد ذهبًا عُدَّ عملُه جليلًا وإنفاقُه عظيمًا، إلَّا أنَّه مع هذا كلِّه لن يبلُغَ في الثَّواب ما أنفقَهُ صحابيٌّ كان مع رسول الله ﷺ مقدار مُدٍّ أو نصفَ مدٍّ من الحنطة أو الشَّعير، قال ابن حزم: «هذا في الصَّحابة فيما بينهم؛ فكيفَ بمنْ بعدَهُم معَهُم ﭫ أجمعين»(٢٠)، وسبب تفضيل نفقتهم على

من بعدهم كما قال النَّووي ـ رحمه الله ـ: «أَنَّهَا كَانَتْ فِي وَقْت الضَّرُورَة وَضِيق الْحَال، بخِلَافِ غَيْرهمْ، وَلِأَنَّ إِنْفَاقهمْ كَانَ فِي نُصْرَته ﷺ وَحِمَايَته، وَذَلِكَ مَعْدُومٌ بَعْده، وَكَذَا جِهَادهمْ وَسَائِر طَاعَتهمْ»[٢١].

وكان ابن عمر يقول: «لا تَسُبُّوا أصحابَ محمَّدٍ ﷺ؛ فَلَمُقامُ أحدِهم ساعةً خيرٌ من عَمَل أحدِكُم عُمرَهُ»[٢٢].

* ومن الفوائد التي يمكن استفادتها من هذا الحديث النَّبويِّ: أنَّه يجب الانتصار للصَّحابة الأبرار، والذَّبِّ عن أعراضهم، وعدم السُّكوت على من تعرَّض لهم؛ فالنبيُّ ﷺ لم يتوانَ أبدًا في الدِّفاع عنهم وأطلقها مدوِّيةً صريحةً ناهيًا عن التَّعرض لهم بأدنى سوء فقال: **«لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي»** وفي لفظ عند مسلم: **«لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي»**.

وعليه ـ أخي القارئ ـ ينبغي علينا أن نعمُر أفئدتنا بحبِّ صحابة رسول الله ﷺ، وأن تلهج ألسنتنا بالثَّناء عليهم ومدحهم والتَّرضِّي عنهم، وأن نعرف مآثرهم ومناقبَهم وفضائلهم[٢٣]، ونَنْشُرَ ذلك بين النَّاس حتَّى لا تجدَ شُبهاتُ الطَّاعنين فيهم والخائضين في أعراضهم والمُشَكِّكين في عدَالتهم سَبيلًا إلى العقولِ؛ فإنَّنا نرى اليوم كثيرًا من العوام والمثقَّفين وحتَّى بعض المنتسبين للدَّعوة إلى الله قد التبس عليهم أمر الشِّيعة الرَّوافض واغترُّوا بهم وأقبلوا على مدحهم والثَّناء عليهم والانتصار لهم، ولم يبالوا بهذا الخلاف الجوهري الَّذي بيننا وبينهم، ولو تريَّثوا قليلًا، وفكَّروا مليًّا، وتركوا العواطف جانبًا، وألقوا نظرةً في أصول دين الشِّيعة، لوجدوا أنَّ كتبهم المعتمدة مثل: «الكافي» و«بحار الأنوار» و«رجال الكشي» قد شحنت ومُلِئت بالسَّبِّ والطَّعن واللَّعن والتَّكفير والتَّكذيب للصَّحابة الكرام ولم يستثنوا منهم إلَّا نزرًا يسيرًا جدًّا؛ وبقدر صُحبة الرَّجل وقُربه من النَّبيِّ ﷺ يكون عداؤهم له أشدَّ، ولعنهم له أكثر، فأبغض النَّاس إليهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما؛ فأيُّ إسلامٍ هذا الذي يريدون نُصرتَه، وهُم يَلعنُونَ خِيرةَ أهلِه ويسبُّون صفوتَه!! وصدق محمَّدُ بن سِيرين ـ رحمه الله ـ لما قال: «مَا أَظُنُّ رَجُلًا يَنْتَقِصُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ يُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ»[٢٤].

فكن على حذر من الوقوع في الاغترار بهم، وارفع شعارَ الحبِّ والولاءِ والانتصارِ لهؤلاء الصَّحابة الأخيارِ؛ فإنَّه من خَير الزَّاد ليوم المعَادِ، وحبِّبْهم إلى جميع النَّاس ومن تحت يدك مِنَ الأهلِ والأولادِ، قال الإمام مالك: «كان السَّلف يعلِّمون أولادهم حبَّ أبي بكر وعمر، كما يعلِّمون السُّورةَ من القرآن»[٢٥]، وتمسَّك بغَرْزِ أهل السُّنَّةِ والجماعة الَّذين سَلِمت قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله رضي الله عنهم، كما وصفهم الله تعالى في قوله:

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر: ١٠]، وإيَّاك أن تقف إلى جانب من خالفوا أمر الله، الذين قالت فيهم عائشة رضي الله عنها: «أُمِروُا أنْ يَسْتَغْفِرُوا لأصحابِ رَسُولِ الله ﷺ فَسَبُّوهُم»[٢٦].

وفي الأخير، إليك ـ أخي القارئ ـ كلمتين لعالمين جليلين أحدهما مغربيٌّ مالكيٌّ، والثَّاني مشرقيٌّ حنفيٌّ، لبيان ما تقرَّر عند أهل السُّنَّة والجماعة في هذا الأصل العظيم؛ قال ابن أبي زيد القيرواني في «الرِّسالة» (ص٣٢): «وأن لا يُذكرَ أحدٌ من صَحابةِ الرَّسول ﷺ إلَّا بأحسنِ ذِكرٍ، والإمساكُ عمَّا شجَر بينهُم، وأنَّهم أحقُّ النَّاس أن يُلتَمسَ لهم أحسنُ المخَارجِ، ويُظَنَّ بهم أحسنَ المذاهبِ».

وقال الطَّحاوي في «عقيدته»: «ونُحبُّ أصحابَ رسُولِ الله ﷺ، ولا نُفرِّط في حُبِّ أحدٍ منهُم، ولا نتبرَّأ منْ أحدٍ منهُم؛ ونُبغِضُ من يُبغِضُهم، وبغيرِ الخَيرِ يَذكرُهم؛ ولا نذكُرُهم إلَّا بخيرٍ؛ وحُبُّهم دينٌ وإيمانٌ وإحسانٌ، وبُغضُهُم كفرٌ ونفاقٌ وطغيانٌ».

---

(١) رواه البخاري (٢٤٥٨، ٥٩٤٩)، ومسلم (٤٦٠١).

(٢) «شرح صحيح مسلم» (١٦/ ٩٤).

(٣) «شرح صحيح مسلم» (١٦/ ٩٣).

(٤) «الصارم المسلول» (٣/ ١٠٤١).

(٥) «الصواعق المحرقة» (ص٣٨٣).

(٦) انظر: «الصَّارم المسلول» (٣/ ١١١٠ ـ ١١١٣).

(٧) «منهاج السُّنَّة» (١/ ١٥٦).

(٨) «حلية الأولياء» (٦/ ٣٢٧).

(٩) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٩٧).

(١٠) «شرح أصول الاعتقاد» للَّالكائي (٢٣٥٩).

(١١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ١٤٢)، وحسَّنه الألباني بمجموع طرقه في «الصَّحيحة» (٢٣٤٠).

(١٢) «الإصابة في تمييز الصَّحابة» (١/ ٦).

(١٣) «شرح صحيح مسلم» (١٦/ ٨٥).

(١٤) «العقيدة الواسطية» (ص٤٤).

(١٥) انظر: «منهاج السنة» (٨/ ٣٠٢، ٤٣١).

(١٦) رواه البخاري (٣٣٨٨).

(١٧) «شرح صحيح مسلم» (١٦/ ٩٣).

(١٨) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٥٢٧).

(١٩) «تاريخ دمشق» (٥٩/ ٢٠٧).

(٢٠) «الفصل في الملل» (٤/ ٩٢).

(٢١) «شرح صحيح مسلم» (١٦/ ٩٣).

(٢٢) رواه ابن ماجه (١٥٨)، وحسَّنه الألباني.

(٢٣) ومن أجمع الكتب في ذلك كتاب «فضائل الصَّحابة» للإمام أحمد.

(٢٤) رواه الترمذي (٣٦٨٥)، وصحَّح إسناده الألباني.

(٢٥) «شرح أصول الاعتقاد» للَّالكائي (١٨٨٩).

(٢٦) رواه مسلم (٥٣٤٤).

الكهانة والعرافة بين الماضي والحاضر

عثمان عيسي

إنَّ العقيدةَ الإسلامية لا تكون صحيحةً سليمة إلَّا بالتَّوحيد الخالص، والابتعاد عن الشِّرك، ولا نجاة للعبد إلَّا بذلك، ولم يزل أعداءُ الله ورسلِه يعملون على إفسادِ هذه العقيدة المباركة، وإضلالِ النَّاس عنها، بشتَّى الطُّرق والوسائل، ومختلفِ الصُرط والحبائل، فبعثوا في الأمَّة رسلَ الشَّياطين من مَرْقَدِهم، وجهَّزوهم بجهازهم؛ ليجهزوا على الإسلام وأهله، بضروبٍ من الشِّرك والكفر، بعد أن اندرس سحرُهم وإفكُهم القديم، فأحيوا أتباعَ الكهنة وأشياعَ السَّحرة، بأدوات تناسب العصر، وتخسف البصيرة والبصر، فزخرفوا للنَّاس الباطل حتَّى التبس عليهم، وأنفقوا فيه الملايير حتَّى راج فيهم، وصار جزءًا من حياتهم، فقديمًا كان السِّحر بِعَصَى من حَطَبٍ، والكهانةُ بأَزْلَامٍ من خَشَبٍ، والآن صارَا في قنوات فضائية تبثُّ العجب! من سِحْر وتَنْجِيم، وكهانة وعرافة، وشعوذة ودَجَلٍ في سلسلةٍ مضادَّةٍ لأصل الإيمان والتَّوحيد.

إنَّ من الشِّرك الصُّراح: ادِّعاء معرفة الغيب، من قوم لا خلاق لهم، أخفَّاءِ الهام، سفهاءِ الأحلام، قد لجُّوا في غوايتهم، وغلوا في جهلهم وجهالتهم، وهاموا في أودية الضَّلال وتمادوا، راموا إدخالَ النَّاس في ظلمات الشِّرك بعد أن أنقذهم اللهُ منه ببعثة النَّبيِّ ﷺ، ونزولِ الوحي في كتاب يُتلى وسنَّة تُتَّبع.

وهؤلاء السَّحرة والكهنة من شرِّ الخلق وأسوإ الخليقة، قد غُمسوا في الشرِّ وصُبِغوا به، أرهقوا الأمَّة الإسلاميَّةَ أضرارًا جسيمة، وآذوا المؤمنين أذيَّة جمَّة، فأفسدوا عليهم الدِّينَ الَّذي ارتضى اللهُ جلَّ وعلا لهم، وأكلوا أموالَ النَّاس بالباطل وصدُّوهم عن سواء السَّبيل.



استضعفوا عقولَ النَّاسِ، واستَحْمَقُوهم بآراء ساقطة، واستغوَوْهُم بأفكارٍ سخيفةٍ، واستمالُوهم بأعمالٍ سقيمةٍ، فلبَّسوا على العباد صورَ السَّداد، وشبَّهوا عليهم سبلَ الرَّشاد، ومَوَّهُوا عليهم الباطلَ حتَّى رآه كثيرٌ من النَّاس حسنًا، لينالوا بذلك عرضًا من الدُّنيا دنيئًا خسيسًا.

وليست الكهانةُ وأخواتُها وليدةَ زماننا، فقد كانت موجودة؛ بل منتشرة في كثير من الأمم السَّابقة، لولوع كثير من النَّاس بها ولوعَهم بالسِّحر والشَّعوذة وخاصَّة النِّساء منهم، ولم تشذَّ البيئة العربية عن ذلك، فكان الكاهن في الجاهلية يُشرفُ على إدارة المعابد الوثنية، ويقوم بسدانة[1] بيوت الأصنام، ويتولَّى شأنَها والقيامَ عليها بالخدمة، يُحيي فيها الأعيادَ الشِّركية، والطقوسَ الكفريَّة، غيرَ مَعنيٍّ بصلاحٍ أو إصلاح، أو تعلُّمٍ وتعليم، أو دعوةٍ للخير والحقِّ أو تواصٍ به، فلا شيءَ يعنيه مِن دنيا النَّاس إلَّا الرِّبحُ الثَّمين، يستطلعُ الغيب، ليملأ الجَيب، مستعينًا بالسِّهام والاستقسام بالأزلام، فترى الكاهنَ يزجرُ الطَّيرَ ويُثيرها، ويبني التَّنبُّؤات على حسب وجهتها، فيكون منها: (السَّانحُ والبَارِح والجابه والقَعيدُ)[2]، وتراه يخطُّ على الرَّمل ويطرق الحصى والنَّوى والحبَّ من الحنطة ونحوها، كضربٍ من التَّنبُّؤ لاستكشاف الغيب، وينظر في النُّجوم ويستسقي بالأنواء، ويعمل السِّحر ـ وهو رأس ما سبق ـ، معتمدًا في ذلك كلِّه على الشَّياطين في معظم المهام، مستغفلًا بتلبيساته الأنام.

فإذا كان هذا حالُ الكاهن في الماضي، وحالُ مَن يأتيه، فإنَّ الكاهنَ والعرَّافَ في حاضرنا الأليم وواقعنا المرير، لم يتبدَّل قدرَ أنملة ولم يتغيَّرْ عمَّا كان عليه الأوَّلون، فقد أُلبستِ الكهانةُ رداءَ العَصْرَنَة، وإزارَ التّقنية الحديثة، فتنوَّعتِ الأساليبُ في الدَّجَل والتَّغرير وتطوَّرت، واتَّسعت رقعةُ الواقعين في شباك هؤلاء الدَّجاجلة الأفَّاكين وانتشرت، فتعلَّق القاصدون للكاهن والمتَّصلون به ـ مباشرة أو عبر الهاتف ـ بالأماني الفارغة والأوهام، فعاشوا ـ وهم أيْقَاظ ـ الرُّؤى والأحلام، وأمِلوا وعودًا كاذبة خاطئة فيها رجمٌ بالغيب، لا يعلمها إلَّا علَّام الغيوب.

وهذا ليس بشيء غريب فقد أخبر الصَّادقُ المصدوق نبيُّنا ﷺ أنَّ الإيمان بالنُّجوم والتَّصديق بها، كائنٌ في أمَّة الإجابة وواقعٌ، وأنَّه من أخوف ما يخاف عليها، وأنَّه من جملة ما يبقى فيها ولا يفنى (يُتْرَك)، فعن أنس رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي بَعْدِي خَصْلَتَيْنِ: تَكْذِيبًا بِالقَدَرِ، وَإِيمَانًا بِالنُّجُومِ**»[3]، وعن أبي مالك الأنصاري رضي الله عنه أنَّ

النَّبيَّ ﷺ قال: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ**»[٤].

وليس هذا من قبيلِ التَّقرير؛ وإنَّما هو من بابِ الإخبارِ للتَّقبيحِ والتَّنفيرِ وإعلانِ النَّفير؛ لأنَّ داءَ الأبدان والأديان إذا استَفْحَلَ تعيَّنَ تصدِّي فُحولِ الأطبَّاءِ والعُلماءِ له على عَجَل، يُحاربونه بِلَا وَجَل، دَفْعًا للقَدَر، بقدَرِ الله عزَّ وجَلَّ.

ولعلمي أنَّ الإشارةَ لا تُغني عن العبارة، وخاصَّةً في موضوع يمسُّ عقيدةَ المسلمين، ويقدح في توحيد ربِّ العالمين، أحببتُ أن أجلِّيَ هذا الأمر، ليكونَ المسلمُ على بيِّنة من دينه وبصيرة، ولو ألقى بعد ذلك معاذيره.

لقد تأمَّلتُ هذا البابَ فوجدتُ مدخل الشَّيطان فيه على ابن آدم من جهات ثلاث إجمالًا:

١ ـ جهلُ المرءِ بالتَّوحيد الَّذي هو حقُّ الله على العبيد، وجهله بالشِّرك وذرائعه، والكفر ووسائله.

٢ ـ عدم فُرقانه بين أولياء الرَّحمن وأولياء الشَّيطان.

٣ ـ اتِّباع ما تهوى نفسه وتشتهيه رعايةً لمصلحته الدُّنيويَّة.

أمَّا جهل المرء بالتَّوحيد؛ فلأنَّ من المقرَّرات الدِّينية، والمسلَّمات العقدية، اختصاصُ الله ـ جلَّ وعلا ـ بعلمِ الغيب؛ لأنَّه «من صفاتِ الرُّبوبيَّةِ التي استأثرَ اللهُ تعالى بها دونَ مَن سواه فلا سَمِيَّ له ولا مضاهيَ ولا مشارك»[٥] وبهذا نَطَقَ الكتابُ والسُّنَّةُ، وعلى هذا أجمعتِ الأمَّةُ قاطبةً إلَّا مَن شذَّ عنها ـ من الرَّافضة والصُّوفية ـ، قال اللهُ جلَّ وعلا: ﴿**وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ**﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿**وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ**﴾ [يونس: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿**قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾**﴾ [النمل: ٦٥]، وقال جلَّ وعلا: ﴿**عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾**﴾ [الجن: ٢٦]... وغير ذلك من نصوص الكتاب الدَّالة دلالة واضحة على أنَّ الغيبَ المطلقَ لا يعلمُه إلَّا الله تعالى، وأنَّه ـ جلَّ وعلا ـ قد يُعلِمُ ملائكتَه ورسلَه من البشر بشيء من الغيب، وأنَّهم لا يعلمون منه إلَّا ما عُلِّموه بوحي من ربِّهم، فادِّعاءُ الكاهنِ علمَ الغيب ـ بأيِّ وسيلةٍ كانت وأيِّ طريق ـ يتضمَّن تكذيبًا منه صريحًا بالقرآن العظيم، **والتَّكذيب بالكتاب كُفْرٌ**، وكلُّ ذلك ضلال وإفك وكذب، لا يغني من الحقِّ شيئًا.

وأخصُّ بالذِّكر هنا التَّنجيم، لاستفحال ظاهرته من قريب، وفشوِّه من جديد، في قنوات السِّحر



الفضائية، الَّتي فيها صرفٌ للعبيد عن التَّوحيد السَّديد، وزجٌّ بالخَلْقِ في ظلمات الشِّرك والتَّنديد.

والتَّنجيم عند أهل العلم بالتَّوحيد قسمان:

١ ـ علم التَّأثير: قال شيخ الإسلام ابن تيمية فيه: «وهو الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية والتَّمزيج بين القوى الفلكيَّة والقوابل الأرضية»[٦]، فهو استدلال بالأحوال الفلكية ـ بزعمهم ـ على الحوادث الكونية «فيجعلونها دالَّة على علم الغيب، ومُنْبِئَة على المغيّبات»[٧] سواء تعلَّق الأمر بالمستقبل ـ كما في الكهانة ـ، أو تعلَّق بما مضى كما في العرافة، ومنها الدّلالة على الشَّيء المسروق، والضالَّةِ من الحيوان ونحو ذلك، وهذا كلُّه من فروع الجبت، وشعب السِّحر، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَنِ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ زَادَ مَا زَادَ**»[٨].

وقوله ﷺ في الحديث «**زَادَ مَا زَادَ**» يعني: «كلَّما زاد من علم النُّجوم زاد له من الإثم مثل إثم السَّاحر، أو زاد اقتباس شعب السِّحر ما زاده اقتباس علم النجوم»[٩].

ويَحرُمُ تعلُّم «**علم التَّأثير**» وتعليمه والتَّواصل مع أصحابه، ومالُ دافعه وآخذه من السُّحت المحرَّم بإجماع المسلمين، قال شيخُ الإسلام ابن تيميَّة: «وصِناعةُ التَّنجيمِ وأخذُ الأُجرةِ عليها وبذْلها حرامٌ بإجماعِ المسلمين، ويَجبُ على ولاةِ أُمورِ المسلمين المنع من ذلك، والقيامُ في ذلك من أفضلِ الجهاد في سبيل الله تعالى»[١٠] اهـ.

فإذا اعتقد المنجِّمُ أو مَن طَلَبَ منه التَّنجيم، أنَّ هذه النُّجومَ مؤثِّرةٌ فاعلةٌ، بمعنى كونها خالقة للحوادث، **فهذا شركٌ أكبر مخرجٌ من الملَّة**؛ لأنَّ في هذا ادِّعاء خالق مع الله جلَّ وعلا، وفيه تأليهٌ للنُّجوم، تعالى اللهُ عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وكذا إذا جعل هذه النُّجومَ ومَطالعَها سببًا لمعرفة الغيب، فاستدلَّ المنجِّمُ بحركاتها وتنقُّلاتها وتغيُّراتها على أمور مستقبلية[١١] **فهذا كفر أكبر ـ أيضًا ـ مخرج من الملَّة**؛ لأنَّ صاحبَه من رسل الشَّيطان وأوليائه، وهو منازعٌ للرَّبِّ ـ عزَّ وجلَّ ـ في بعض خصائصه، مُدَّعٍ للغيب مكذِّبٌ للقرآن.

٢ ـ علم التَّسيير: وهو معرفةُ دلالات النُّجوم على الجهات والأوقات، وهي سننٌ كونيةٌ مقدَّرة بحسبان، طريقُها الحِسُّ والمشاهدة، قال اللهُ جلَّ وعلَا: ﴿**هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٥**﴾ [يونس: ٥]،

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [النحل: ١٥]، فلمَّا ذكر الله ـ جلَّ وعلا ـ العلاماتِ الأرضية ذَكَرَ بعدَها العلاماتِ السَّماويَّةَ، فقال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٦][١٢].

قال ابنُ رجب ـ رحمه الله ـ في «فضل علم السَّلف»[١٣]: «وأمَّا **علم التَّسيير** فإذا تعلَّم منه ما يحتاج إليه للاهتداء ومعرفة القبلة والطُّرق كان جائزًا عند الجمهور...».

وأمَّا عدم تفريق المرء بين أولياء الرَّحمن وأولياء الشَّيطان، فلأنَّ من النَّاس من يغترُّ بهؤلاء فيحسبهم من أهل الخير والصَّلاح، لاستعمالهم القرآن تارةً، ولاستدلالهم بالسُّنَّة النَّبويَّة تارةً أخرى، وهذا صنيعٌ من الكهنةِ قديمٌ، وعملٌ غيرُ صالحٍ ذَمِيمٌ، فهؤلاءِ الدَّجاجلة «يعتقدون اعتقاد الكلدان، ويلبسون لباس أهل القرآن»[١٤]، كلُّ ذلك من باب الخداع والتَّدليس، والتَّغرير والتَّلبيس، قال شيخ الإسلام ابنُ تيمية: «**ولا يُنْفَقُ البَاطلُ في الوجودِ إلَّا بِشوبٍ مِن الحقِّ**»[١٥]، ولو لم يفعلوا ذلك لَمَا راجتْ تجارتُهم الباطلة، وإفكُهم القديم والحديث، وإنَّما قصْدُ هؤلاءِ ومرادُهم هو إضلالُ الخلق وإفسادُ دينِهم، وخرابُ دنياهم، وخسران آخرتِهم، فقصدُهم تابعٌ لقصدِ الشَّياطين وهو: «الفساد والكفر والمعاصي والبغي والعتوُّ والتَّمرُّد وغير ذلك من القبائح»[١٦].

ولا يلتبس هذان الصِّنفان إلَّا عمَّن أُغلف قلبُه، وعمي فؤاده، وزمنت فطنتُه، وسقم فهمُه، وتكدَّر ذهنُه، وتبلَّد حسُّه، ممَّن ظنَّ كلَّ بارقٍ ذَهَبًا إبريزًا، وحسِبَ كلَّ ناعقٍ في قناةِ شعوذةٍ راقيًا ماهرًا عزيزًا!

والشَّيطانُ هو الَّذي يُلبِّسُ على النَّاس، فَيُشبِّه هؤلاء الكهنة بالرُّسل الصَّادقين، أو ـ على أقلِّ الأحوال ـ بالأولياء الصَّالحين، قال ابنُ القيِّم ـ رحمه الله ـ: «فالكهنةُ رُسلُ الشَّيطانِ حقيقةً، أَرسلَهم إلى حزبه مِن المشركين وشبَّههم بالرُّسُل الصَّادقين، حتَّى استجابَ لهم حزبُه،...»[١٧].

وأمَّا اتِّباع المرء ما تهواه نفسُه وتشتهيه رعايةً لمصلحةٍ دنيويَّة: فَبيانُه أنَّ من النَّاس مَن يُطغِيه إقبالُ الخير فيخشى أن يَزُول، ويُزعِجُه إدبارُ الدُّنيا فيخافُ أن تَحُول، وهذا ممَّا فُطروا عليه، فالمرءُ قليلُ الصَّبرِ على ما يُؤلِمه جسدًا وروحًا، حتَّى إنَّك ترى الواحدَ من هؤلاء إذا أظَلَّتْهُ سَحائبُ القُنوطِ والإيَّاس، أو اعْتَصرتُه كآبةُ التَّعاسةِ والإبلاس، أصابَه الوسواس، خاصَّةً فيما يتعلَّقُ بالصِّحَّةِ والمال، مِن جهةِ السَّقَم والإفلاس، فتراه طريحًا بين



يدي كاهنٍ مُبطلٍ خَلَّاب، وساحرٍ مُخَرْق كذَّاب، إليه يُسرِعُ ويَهرَع، وإلى قوله يَرجِع ويَفزَع، رغبةً منه في الشِّفاء أوالغَناء، أو جَلْبِ هَنَاء ودفْعِ بَلاَء، ليعيشَ بزعمه مِن السُّعَداء، فيلجأ مِن مُنطَلَقِ ضعفِ عقيدتِه، وقلَّةِ تحمُّلِه، وسُوءِ ظنِّه بربِّه، ومرضِه النَّفسي؛ يلجأ إلى الكشفِ عن المخبوءِ خَوفًا مِن الموبوء، وإلى البحثِ عن المستورِ حَذَرًا من المسطُور، غَيْرَ آبهٍ بدين، ولا مُلتفتٍ لشريعةِ ربِّ العالمين.

ولَوْ فَقِهَ هؤلاء وذهِنوا، لَعَلِموا أنَّ ما يُصلح أحوالَهم من أمورِ الغيب مِمَّا هُم بحاجة إليه، قد كُشِفَ لهم في كتابِ ربِّهم وعلى لسانِ نبيِّهم ﷺ، فَمَن تكلَّفَ معرفةَ ما وراءَ ذلك «فقد ظلم نفسه، وبخس من التَّوفيق حظّه، ولم يحصل إلَّا على الجهل المركَّب، والخيال الفاسد في أكثر أمره»[١٨].

فكيفَ هدأت جفونُ قومٍ يأتون الكهَّان، ويَزورون العرَّافين، ويتعاطَوْن السِّحر، ويُطالِعون الأبراج، ويُشاهدون قنوات السِّحر والشَّعوذة، ويتَّصِلون بالقائمين على هذه البرامجِ الكفريَّة ويسألونهم، وأحسنُهم حالًا من يزعم أنَّه يقرأُ ويُشاهدُ مِن بابِ الفُضول، وصنيعُه هذا محرَّمٌ عند العلماءِ، لقولِ النَّبيِّ ﷺ: «**مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**»[١٩]، وهذا حكمُ مَن أتى العرَّافَ والكاهنَ وسألَه من غير إنكار عليه، ولا تصديق له، سواء كان السُّؤالُ مباشرةً أو بالهاتف، أو بالأنترنيت، أو غيرِها مِن وسائلِ الاتِّصال، لا يَشُكُّ في شمول الحكم لذلك مَن ذاقَ طعمَ التَّوحيد، وشمَّ رائحةَ الفقه.

فكيفَ بالمرءِ إذا كان بعد سؤال الكاهن والاتِّصالِ به مِن المصدِّقين!؟ فقد جاءَ الوعيدُ الشَّديدُ في حقِّ مَن يفعل ذلك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ**»[٢٠].

قال الشَّيخُ صالحُ الفوزان ـ حفظه الله ـ: «وفي الحديث دليلٌ على وجوبِ تكذيبِ الكُهَّان ونحوِهم، وأنْ لا يَقَعَ في نفس الإنسان أدنى شكٍّ في كذبهم، **فمَن صدَّقهم، أو شكَّ في كذبهم، أو توقَّف**، فقد كفر بما أنزل على محمَّد ﷺ؛ لأنَّه يجبُ الجزمُ بكذبهم»[٢١].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ**»[٢٢].

والكفر المذكور في الحديث محمول عند أهل

العلم على واحد من ثلاث:

١ ـ الكفر الأكبر المخرج من ملَّة الإسلام، وهذا هو الصَّحيح من كلام أهل العلم.

٢ ـ الكفر الأصغر، وإلى ذلك مالَ بعضُ أهل العلم.

٣ ـ السُّكوت عنه؛ فلا يقال كفر أكبر ولا كفر أصغر، وإنَّما يطلق كما جاء[٢٣].

قال ابنُ القيِّم ـ رحمه الله ـ: «فإنَّ النَّاس قسمان: أتباع الكهنة، وأتباع رسل الله، فلا يجتمع في العبد أن يكون من هؤلاء وهؤلاء، بل يبعد عن رسول الله ـ صلَّى الله تعالى عليه وآله وسلَّم ـ بقدر قربه من الكاهن، ويُكَذِّبُ الرَّسولَ بقدر تصديقه للكاهن» اهـ[٢٤].

ولإزالة شبهة ينبغي التَّنبيه على أنَّ تحديثَ الكاهنِ بشيء يكون حقًّا أو حصول غرض السَّائل على يديه ليس دليلًا على جواز ما يعمله ولا على صدقه في نفسه، وهذه شبهةٌ قديمةٌ أَجابَ عنها النَّبيُّ ﷺ ففي «الصَّحيحين»[٢٥] من حديث أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: سَأَلَ أُنَاسٌ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْكُهَّانِ فَقَالَ: «**إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِشَيْءٍ**»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ بِالشَّيْءِ يَكُونُ حَقًّا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ يَخْطَفُهَا الجِنِّيُّ فَيُقَرْقِرُهَا**[٢٦] **فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ كَقَرْقَرَةِ الدَّجَاجَةِ، فَيَخْلِطُونَ فِيهِ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ**».

وعند البخاري[٢٧] عن عائشة رضي الله عنها أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ المَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ ـ وَهْوَ السَّحَابُ ـ فَتَذْكُرُ الأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ، فَتَسْتَرِقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ، فَتَسْمَعُهُ فَتُوحِيهِ إِلَى الْكُهَّانِ، فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ**».

فكيف قرَّت عيونُ الَّذين يقرؤون هذه الأحاديث النَّبويَّة، وهم لا يزالون يسوِّدون الصُّحفَ والمجلَّاتِ بـ: (برجك اليوم، أنت والنُّجوم، الأبراج،... إلخ) عناوين ومضامين كلُّها زُور وباطِل، والواحدُ من أصحابها على خَصائصِ الرَّبِّ ـ عزَّ وجلَّ ـ مُتطاوِل!

ينبغي لمن سمع بالحقِّ وبَانَ له، أَنْ يرعويَ عن الباطلِ بجميع صوره وأشكاله، فـ ﴿**إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١]، وعليه أن يرجع إلى رُشدِه، ويثوبَ إلى هداه، ويستقيمَ على الطَّريقة، حتَّى يظفرَ بالأمن والهداية والنَّصر والتَّمكين.

إنَّه ممَّا يتنافى مع الكمالات أن تنقلبَ أمَّتُنا إلى أمَّةٍ حريصةٍ على كشفِ الغيوب بدلَ رَفْعِ العيوب، وعيبُ الشِّركِ لا يُساويه ولا يُضاهيه عَيبٌ، ولهذا وجبَ على الدُّعاةِ إلى الله الاعتناءُ بالتَّوحيد، ببيانِه والذبِّ عن جَنابِه، نُصحًا للأمَّة، **فما أحسنَ أثر الدُّعاةِ على النَّاس**

في توجيههم، وما أقبحَ أثر النَّاس على الدُّعاةِ في توجُّهاتِهم، والأمَّةُ منصورةٌ مرحومةٌ مَا نَصرت دينَ الله بالعملِ به والاهتداءِ بهدي النَّبيِّ ﷺ وسنَّته.

قال الشَّيخُ مباركُ الميلي ـ رحمه الله ـ:

«ولو عنيت أمَّتُنا بالعلمِ عنايتَها بالسِّحرِ؛ لم تنحرفْ في حياتِها عن سُلَّمِ الرُّقيِّ؛ ولكنَّها حَادَت عن سُنَّةِ التَّقدُّم، وأَحاطتْ بها خطاياها، فَحاقَ بها سوءُ عملِها ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦]» اهـ[٢٨].

---

(١) أي: خدمتها.

(٢) السَّانح: هو ما تيامن من الطَّير عند الزَّجر، والبارح ما تياسر، والجابه ـ ويقال له أيضًا: «النّاطح» ـ وهو ما استقبل المرءَ وجاء من قُدَّامه، والقعيد ما جاء من خلفِه، انظر: «فقه اللُّغة للثَّعالبي» (ص٤٣).

(٣) **حديث حسن**: رواه أبو يعلى في «المسند» رقم (٤١٣٥) وابن عديٍّ في «الكامل» (٤/ ١٣٥٠)، انظر: «صحيح الجامع» (٢١٥) و«الصَّحيحة» (١١٢٧).

(٤) رواه مسلم (٩٣٤).

(٥) «معارج القبول» (٢/ ٧١٦).

(٦) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٩٢).

(٧) «التَّمهيد لشرح كتاب التوحيد» (ص٣١٠) .

(٨) **حديث صحيح**: رواه أبو داود (٣٩٠٥)، وابن ماجة (٣٧٢٦)، انظر: «صحيح الجامع» (٦٠٧٤).

(٩) «فيض القدير» (٦/ ١٠٤).

(١٠) «الاختيارات الفقهية» (ص٢٢٤).

(١١) «القول المفيد» (٢/ ١٢٧ـ بتصرُّف وزيادة).

(١٢) المرجع السَّابق.

(١٣) (ص٢٢) ـ ط/ دار الشهاب.

(١٤) «رسالة الشِّرك ومظاهره» (ص٢٣٨) ـ ط/ دار الرَّاية.

(١٥) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٩٠).

(١٦) «معارج القبول» (٢/ ٧١٣) ـ ط/ دار ابن الجوزي.

(١٧) «إغاثة اللَّهفان» (١/ ٢٥٣)/ (ط) ١٩٧٥ ـ دار المعرفة.

(١٨) «مفتاح دار السَّعادة» (١/ ٢٨٢).

(١٩) رواه مسلم في «صحيحه» (٢٢٣٠).

(٢٠) **حديث صحيح**: رواه أحمد في «المسند» (٩٥٣٢)، انظر: «صحيح الجامع» (٥٩٣٩).

(٢١) «إعانة المستفيد شرح كتاب التَّوحيد» (١/ ٥٠٨).

(٢٢) **حديث صحيح**: رواه البزَّار (٣٥٧٨) بإسند جيِّد، كما قال المنذري، والطبرانيُّ في «الكبير» (١٨/ ١٦٢/ ٣٥٥)، انظر: «صحيح التَّرغيب والتَّرهيب» (٣/ ٩٧).

(٢٣) «التَّمهيد» لصالح آل الشيخ (ص٣٢١ ـ ٣٢٢).

(٢٤) «إغاثة اللَّهفان» (١/ ٢٥٣).

(٢٥) رواه البخاريُّ (٥٧٦٢) ومسلم (٢٢٢٨).

(٢٦) أي: يردِّدُها.

(٢٧) في «صحيحه» (٣٢١٠).

(٢٨) «رسالة الشِّرك ومظاهره» (ص٢٣٩) ـ ط/ دار الراية.

يحيى بن يحيى الليثي وروايته للموطأ

د/ رضا بوشامة

الحمد لله وحده، والصَّلاة والسَّلام على من لا نبيَّ بعده، وبعد:

فإنَّ من أعظم الكتب التي صُنِّفت في القرن الثَّاني الهجري «موطَّأ» إمام دار الهجرة مالك بن أنس الأصبحي (ت١٧٩هـ)، وقد أخذه عنه أزيد من سبعين رجلًا، ولم يشتهر من هذه الرِّوايات إلَّا القليل، ثمَّ لم يَبْقَ منها إلى يومنا هذا إلَّا النَّزر اليسير، وهو ما يُوازي عُشر العدد الذي أخذ عن مالك «الموطَّأ».

ومن تلك الرِّوايات المشهورة الَّتي انتشرت في الآفاق، بل صار المُعوَّل عليها اليوم في الشَّرق والغرب بحيث إذا أُطلق لفظ «الموطَّأ» لم يُصرف في الغالب إلَّا لتلك الرِّواية، وهي رواية الإمام يحيى بن يحيى اللَّيثي الأندلسي.

وفي هذا المقال تعريفٌ بتلك الرِّواية وصاحبها، وبَنَيْتُ ذلك كلَّه على الاختصار، عسى الله أن ينفع كاتبها وقارئها، إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه.

* **التَّعريف بصاحب الرِّواية:**

هو الإمام يحيى بن يحيى بن كثير بن وَسْلاس، وقيل: وَسْلاسن بن شَمْلَل بن مَنْقايا المصمودي القرطبي أبو محمَّد اللَّيثي، أصله من البَرْبَر تولَّى بني ليث فنُسب إليهم، صاحب الرِّواية المشهورة عن مالك، ولد سنة (١٥٢هـ)، وتوفي سنة (٢٣٣هـ)، وقيل: (٢٣٤هـ).

* **ثناء العلماء عليه:**

قال ابن الفرضي: «قدم الأندلسَ بعلم كثير، فعادت فتيا الأندلس بعد عيسى بن دينار إلى رأيه وقوله».

وقال أيضًا: «كان إمامَ وقته، واحدَ بلده، وكان رجلًا عاقلًا»[1].

وقال أحمد بن خالد: «لم يُعط أحد من أهل

العلم بالأندلس منذ دخلها الإسلام من الحظوة، وعظم القدر، وجلالة الذِّكر ما أُعطيه يحيى ابن يحيى، وسمع منه مشايخ الأندلس في وقته»[٢].

وقال أيضًا: «كان يحيى ـ رحمه الله ـ من العقلاء... وكان عالمًا فاضلًا»[٣].

وقال محمَّد بن عمر بن لبابة: «عاقلُ الأندلس من العلماء يحيى بن يحيى، وفقيهُها عيسى بن دينار، وعالمُها عبد الملك بن حبيب»[٤].

وقال ابن عبد البرِّ: «كان إمامَ أهل بلده، والمُقتدَى به فيهم، والمنظورَ إليه والمُعوَّلَ عليه، وكان ثقةً عاقلًا، حسنَ الهَدي والسَّمت، كان يُشبَّه في سَمْتِهِ بسَمت مالك بن أنس رحمه الله، ولم يكن له بصرٌ بالحديث»[٥].

وقال الحميدي: «إليه انتهت الرِّياسةُ بالفقه بالأندلس، وبه انتشر مذهبُ مالك هناك»[٦].

وقال الخليلي: «ثقة»[٧].

وأخبار يحيى كثيرة، وذكر جملةً منها محمَّد بن حارث الخشني في كتابه «أخبار الفقهاء والمحدِّثين»، ثمَّ قال في آخر ترجمته: «وأخبارُ يحيى بن يحيى كثيرة غزيرةٌ، لو ذهبتُ إلى تقصِّيها واستيعابها لطال بها الكتاب طولًا يخرج عن حَدِّ ما بُني عليه من معرفة العلماء»[٨].

*** سماعه للموطَّأ:**

طلب يحيى بن يحيى اللَّيثي العلمَ بالأندلس عند زياد بن عبد الرَّحمن شبطون، راوِيةِ مالك بن أنس، ثمَّ رحل إلى المشرق وهو ابن ثمان وعشرين سنة، فسمع من مالك بن أنس «الموطَّأ»، غير أبواب من كتاب الاعتكاف، شكَّ في سماعها، فأثبت روايتَه فيها من زياد بن عبد الرَّحمن شبطون.

ثمَّ التقى يحيى بعبد الرَّحمن بن القاسم صاحب الإمام مالك، فسمع منه المسائل التي دوَّنها ابن القاسم عن مالك، فنشط يحيى للرُّجوع إلى مالك ليسمع منه تلك المسائل، فرحل إليه رحلةً ثانيةً، فَأَلْفَى مالكًا عليلًا، فأقام عنده إلى أن توفي رحمه الله، وحضر جنازته[٩].

وقال القاضي عياض: «كان لقاؤه لمالك سنة تسع وسبعين (أي ومائة)، السَّنة التي مات فيها مالك»[١٠].

وعليه يكون يحيى بن يحيى سمع «الموطَّأ» من مالك في أواخر حياته رحمه الله، وقد كتب الله لروايته القبول، وعكف عليها العلماء شرحًا لمعانيها وفقهها، وتعريفًا برجالها وأسانيدها، وغير ذلك ممَّا صُنِّف حول «الموطَّأ»، وعوَّل عليها كثيرٌ من علماء المسلمين في دراستهم لموطَّأ مالك، خاصة المغاربة منهم، كابن عبد البرِّ والباجي وابن الحذاء وابن

العربي، وغيرهم، فصارت روايته أشهر الرِّوايات، وأصبحت في وقتنا المعتمدة عند الإطلاق.

وكان يحيى بن يحيى في روايته قد فوَّت أبوابًا من كتاب الاعتكاف، وهذا هو المشهور، وذكر ابن ناصر الدِّين عن هبة الله بن الأكفاني أنَّه ذكر في كتابه «تسمية رواة الموطَّأ عن مالك» أنَّه بقي عليه كتاب أو كتابان.

قال ابن ناصر الدِّين: «وذكر غير ابن الأكفاني أنَّ يحيى اللَّيثي شكَّ في أيُّوب (كذا، والصواب: أبواب) من كتاب الاعتكاف، وهي خروج المعتكف إلى العيد، وباب: قضاء الاعتكاف، وباب: النكاح في الاعتكاف، هل سمع ذلك من مالك أم لا؟ فأخذه عن زياد بن عبد الرَّحمن شبطون عن مالك»[١١].

*** لطيفة:**

قال أحمد بن خالد، المعروف بابن الجَبَّابِ: «وقع في باب من تلك الأبواب غلط من إسناد حديث رواه يحيى بن يحيى عن زياد بن عبد الرَّحمن عن مالك بن أنس عن الزُّهري، ورواه أصحاب مالك كلُّهم عن يحيى بن سعيد عن عمرة.

قال أحمد: فأردتُ أن أتثبَّت وأعرف إن كان الغَلَط من زياد بن عبد الرَّحمن أو من يحيى بن يحيى، فسألت بعض آل زياد فأخرج إليَّ الكتاب الَّذي رواه زياد عن مالك، فوجدت الورقة التي فيها تلك الأبواب قد نُزعت من كتاب زياد، فتأوَّلتُ أنَّ زيادًا فعل ذلك إعظامًا ليحيى بن يحيى لئلَّا يشركه أحدٌ في روايته عنه»[١٢].

*** منزلته في الرِّواية عن مالك:**

تقدَّم قول ابن عبد البرِّ رحمه الله: «ولم يكن له بَصَرٌ بالحديث».

قال الذَّهبي: «نعم، ما كان من فرسان هذا الشَّأن، بل كان متوسِّطًا فيه رحمه الله»[١٣].

قلت: فَلِذَا أُخذ عليه في روايته للموطَّأ أوهامٌ نبَّه عليها كثيرٌ من العلماء كابن عبد البرِّ، وابن الحذاء، وأبي العباس الدَّاني، وغيرهم.

وقال محمَّد بن حارث الخشني: «وذكر بعضُ النَّاس أنَّه كان ليحيى بن يحيى في «موطَّأ مالك بن أنس» رحمه الله، وفي غيره تصحيف، فأمَّا إبراهيم ابن محمَّد بن باز[١٤] فكان يُكثر على يحيى في ذلك ويقول: «غلط يحيى في «الموطَّأ» في نحو من ثلاثمائة موضع»، فذُكر ذلك لأحمد بن خالد فقال: لا ولا، هذا كلُّه الَّذي صحَّ من ذلك نحو ثلاثين موضعًا.

قال محمد (أي الخشني): قال لي يعلى بن سعيد: حصَّل محمَّد بن وضَّاح ذلك الغلط كلّه فأصاب ستَّة وثلاثين موضعًا.

قال محمَّد: وقرأت تلك المواضع كلّها في

كتاب محمَّد بن عبد الملك بن أيمن، وإنَّما هي في الإسناد ليس في متون الأحاديث» اهـ.

ثم ذكرها محمَّد بن حارث الخشني حديثًا حديثًا، وتكلَّم على غلط يحيى ووهمه، وبعضها ممَّا توبع عليه يحيى[15].

وبالرغم من تلك الأوهام كان يحيى اللَّيثي من أحسن أصحاب مالك نقلًا لموطَّئه، قال ابن عبد البرِّ: «ولعمري لقد حصَّلت نقله عن مالك، وألفيته من أحسن أصحابه نقلًا، ومن أشدِّهم تخلُّصًا في المواضع التي اختلف فيها رواة «الموطَّأ»، إلَّا أنَّ له وهمًا وتصحيفًا في مواضع فيها سماجة»[16].

وقال أيضًا: «وأُخذ عليه في روايته في «الموطَّأ»، وحديث اللَّيث وغيره أوهام نُقلت، وكُلِّم فيها فلم يغيِّر ما في كتابه، واتَّبعه الرُّواة عنه، وقد عرفها النَّاس، وبيَّنوا صوابها، وأمَّا ابن وضَّاح فإنَّه أصلحها ورواها النَّاس عنه على الإصلاح»[17].

هذه مكانة يحيى اللَّيثي في الرِّواية عن مالك، فروايته رواية متقنة إلَّا في مواضع نبَّه عليها العلماء.

*** الرواة عن يحيى بن يحيى اللَّيثي:**

أخذ «الموطَّأ» عن يحيى بن يحيى اللَّيثي أكثر من واحد، واشتهرت رواية رجلين، وهما: ابنه عبيد الله، وكان آخر من أخذ عن يحيى اللَّيثي، والثَّاني: محمَّد بن وضَّاح، وروى عن يحيى غيرهما[18]، إلَّا أنَّ روايتهما أشهر وعليهما عوَّل كلُّ من سمع «الموطَّأ» من بعدهما[19].

فأمَّا عبيد الله:

فهو مُسنِد قرطبة عبيد الله بن يحي بن يحي بن كثير أبو مروان اللَّيثي مولاهم الأندلسي، ولد سنة (٢١٠هـ)، وقيل: (٢١٧هـ)، وتوفي ـ رحمه الله ـ في رمضان سنة (٢٩٩هـ)، وقيل: (٢٩٨ هـ).

قال محمَّد بن حارث الخُشَني: «كان عاقلًا وقورًا، وافرَ الحرمة، عظيمَ الجاه، بعيدَ الاسم، تامَّ المروءة، عزيزَ النَّفس، غَزِيرَ المعروف، نهَّاضًا بالأثقال، مُشَاوَرًا في الأحكام»[20].

وقال ابن الفرضي: «روى عن أبيه علمًا كثيرًا، ولم يسمع بالأندلس من غيره... وكان رجلًا عاقلًا كريمًا، عظيمَ المال والجاه، مقدَّمًا في المشاورة في الأحكام، مقدَّمًا برئاسة البلد غير مدافَع»[21].

وكان عبيد الله يروي عن أبيه «الموطَّأ» لفظًا، لا يغيِّر شيئًا من حروفه، وبهذا امتازت روايته على رواية ابن وضَّاح.

وأمَّا ابن وضَّاح:

فهو محمَّد بن وضَّاح بن بَزِيع ـ بالباء الموحَّدة والزَّاي ثمَّ ياء فعين مهملة ـ مولى الإمام عبد

الرَّحمن بن معاوية، القرطبي أبو عبد الله.

قال محمَّد بن حارث الخشني: «قال لي أحمد بن عبادة: كان ابن وضَّاح منتجبًا (كذا بالجيم، ولعله منتخِبًا) للرِّجال لا يأخذ شيئًا من روايته إلَّا عن الثِّقة، وأدخل الأندلس عِلمًا عظيمًا، وسمع منه من أهلها بشَرٌ كثير، قال محمَّد: كان ابنُ وضَّاح شيخَ الأندلس»[٢٢].

قال ابن الفرضي: «كان عالمًا بالحديث، بصيرًا بطرقه، متكلِّمًا على عللِه، كثيرَ الحكاية عن العبَّاد، وَرِعًا زاهدًا فقيرًا متعفِّفًا...»[٢٣].

وكان ابنُ وضَّاح ـ رحمه الله تعالى ـ ممَّن يغيِّر في رواية يحيى اللَّيثي، ويصلح الخطأ ـ في نظره ـ بحسب معرفته، أو اعتمادًا على الرِّوايات الأخرى عن مالك.

وتقدَّم قول ابن عبد البرِّ: «وأمَّا ابن وضَّاح فإنَّه أصلحها ورواها النَّاس عنه على الإصلاح».

قلت: إصلاحه لرواية يحيى كان موفَّقا في بعض المواطن دون بعض، وقد كَرِهَ العلماء التَّصحيح دون تنبيه، وكان من شأن الحذَّاق التَّنبيه على الوهم بالتَّضبيب لا بإصلاحه وحذف ما سواه.

قال القاضي عياض: «الَّذي استمرَّ عليه عملُ أكثر الأشياخ نقل الرِّواية كما وصلت إليهم وسمعوها، ولا يغيِّرونها من كتبهم، حتَّى أطردوا ذلك في كلمات من القرآن استمرَّت الرِّواية في الكتب عليها بخلاف التِّلاوة المجمع عليها، ولم يجئ في الشَّاذِّ من ذلك في «الموطَّأ» و«الصَّحيحين» وغيرها حماية للباب؛ لكن أهل المعرفة منهم ينبِّهون على خطئها عند السَّماع والقراءة وفي حواشي الكتب، ويقرؤون ما في الأصول على ما بلغهم.

ومنهم من يجسر على الإصلاح، وكان أجرأهم على هذا من المتأخِّرين القاضي أبو الوليد هشام بن أحمد الكناني الوَقَّشي، فإنَّه لكثرة مطالعته وتفنُّنه، كان في الأدب واللُّغة وأخبار النَّاس وأسماء الرِّجال وأنسابهم وثقوب فهمه وحدَّة ذهنه، جَسَرَ على الإصلاح كثيرًا، وربَّما نبَّه على وجه الصَّواب؛ لكنَّه ربَّما وهم وغلط في أشياء من ذلك، وتحكَّم فيها بما ظهر له أو بما رآه في حديث آخر، وربَّما كان الَّذي أصلحه صوابًا، وربَّما غلط فيه وأصلح الصَّواب بالخطأ، وقد وقفنا له من ذلك في «الصَّحيحين» و«السِّير» وغيرها على أشياء كثيرة، وكذلك لغيره ممَّن سلك هذا المسلك.

وحماية باب الإصلاح والتَّغيير أولى؛ لئلَّا يجسر على ذلك من لا يحسن، ويتسلَّط عليه من لا يعلم، وطريق الأشياخ أسلم مع التَّبيين، فيذكر اللَّفظ عند السَّماع كما وقع، وينبِّه عليه، ويذكر وجه الصَّواب، إمَّا



من جهة العربية، أو النَّقل، أو وروده كذلك في حديث آخر، أو يقرؤه على الصَّواب، ثمَّ يقول: وقع عند شيخنا أو في روايتنا كذا، أو من طريق فلان كذا، وهو أولى؛ لئلَّا يقول على النَّبيِّ ﷺ ما لم يقل»[٢٤].

وقال القاضي أيضًا في مقدمة كتابه «مشارق الأنوار»: «كثر في المصنَّفات والكتبِ التَّغييرُ والفسادُ، وشمل ذلك كثيرًا من المتون والإسناد، وشاع التَّحريف، وذاع التَّصحيف، وتعدَّى ذلك منثور الرِّوايات إلى مجموعها، وعمَّ أصول الدَّواوين مع فروعها، حتَّى اعتنى صبابة أهل الإتقان والعلم ـ وقليل ما هم ـ بإقامة أودها، ومعاناة رمدها، فلم يستمر على الكافة تغييرها جملة لما أخبر ـ عليه السَّلام ـ عن عدول خلف هذه الأمَّة، وتكلَّم الأكياس والنُّقَّاد من الرُّواة في ذلك بمقدار ما أوتوه، فمن بين غال ومُقَصِّر، ومشكور عليم، ومتكلِّف هَجوم، فمنهم من جسر على إصلاح ما خالف الصَّواب عنده، وغيَّر الرِّواية بمنتهى علمه وقدر إدراكه، وربَّما كان غلطه في ذلك أشدّ من استدراكه؛ لأنَّه متى فتح هذا الباب لم يوثق بعد بتحمُّل رواية، ولا أنِس إلى الاعتداد بسماع، مع أنَّه قد لا يُسلّم له ما رآه، ولا يُوافق على ما أتاه، إذ فوق كلِّ ذي علم عليم... فأمَّا الجسارة فخسارة، فكثيرًا ما رأينا من نبَّه بالخطأ على الصَّواب فعكس الباب، ومن ذهب مذهب الإصلاح والتَّغيير فقد سلك كلَّ مسلك في الخطأ، ودَلَّاه رأيه بغرور، وقد وقفت على عجائب في الوجهين، وسننبِّه من ذلك على ما توافيه العبر، وتحقق من تحقيقه أنَّ الصَّواب مع من وقف وأحجم، لا مع من صمم وجسر، وتتأمَّل في هذه الفصول ما تكلَّمنا عليه وتكلَّم عليه الأشياخ فيما أصلحه أبو عبد الله بن وضَّاح في «الموطَّأ» على رواية يحيى بن يحيى فيمن تقدَّم»[٢٥].

فابن وضَّاح ـ رحمه الله ـ كان ممَّن جسر على رواية يحيى اللَّيثي، وأصلح ما ظنَّه خطأ، فوقع فيما أنكره العلماء، والأمثلة فيما أصلحه وكان الصَّواب في تركه كثيرة.

لذا قال مؤرِّخ الأندلس المحدِّث أحمد بن محمَّد بن عبد البرِّ[٢٦]: «وله خطأٌ كثيرٌ محفوظٌ عنه، وأشياء كان يغلط فيها»[٢٧].

وقال محمَّد بن حارث الخشني: «لم يشك النَّاس أنَّ محمَّد بن وضَّاح كان غايةً في الصِّدق والثِّقة، غير أنَّه حُفظت عليه زلَّات، كان محمَّد بن قاسم يعددها عليه، فحضرت محمَّد بن أحمد الأشبيلي وقد استفرغ في ملامة محمَّد بن قاسم من

أجل ما كان يذكر في ابن وضَّاح، فسكت محمَّد بن قاسم عمَّا كان يصف من ذلك»[٢٨].

وذكر ابن عبد البرِّ حديث عروة بن الزُّبير وقول النَّبيِّ ﷺ لعبد الرَّحمن بن عوف: «**كَيْفَ صَنَعْتَ يَا أَبَا مُحَمَّد فِي اسْتِلاَمِ الرُّكْنِ**»، وزاد فيه ابن وضَّاح «الرُّكن الأسود»، وزعم أنَّ يحيى سقط له «الأسود»، قال ابن عبد البرِّ: «وقد صنع ابن وضَّاح مثل هذا أيضًا في «موطَّأ يحيى» في قول مالك: سمعت بعض أهل العلم يستحبُّ إذا رفع الَّذي يطوف بالبيت يده عن الرُّكن اليماني أنْ يضعها على فِيه، فأمر ابن وضَّاح بطرح اليماني من رواية يحيى، وهذا مِمَّا تَسَوَّرَ فيه على رواية يحيى، وهي أصوب من رواية يحيى (كذا)، ومن تابعه في هذا الموضع، وكذلك روى ابن وهب، وابن القاسم، وابن بكير، وأبو مصعب وجماعة في هذا الموضع عن مالك: أنَّه سمع بعض أهل العلم يستحبُّ إذا رفع الَّذي يطوف بالبيت يده من الرُّكن اليماني أن يضعها على فيه، زاد ابن وهب: من غير تقبيل، وقالوا كلُّهم: الرُّكن اليماني، والعجب من ابن وضَّاح ـ وقد روى «موطَّأ ابن القاسم»، وفيه اليماني ـ كيف أنكره.

وقد روى القعنبي عن مالك في ذلك قال: سمعت بعض أهل العلم يستحبُّون إذا رفع الَّذي يطوف بالبيت يده عن الرُّكن الأسود أن يضعها على فيه؛ هكذا قال القعنبي: الرُّكن الأسود، وأظنُّ ابن وضَّاح إنَّما أنكر «اليماني» في رواية يحيى؛ لأنَّه رأى رواية القعنبي، أو من تابع القعنبي على قوله: «الأسود»، فمن هنا أنكر «اليماني»، على أنَّ ابن وضَّاح لم يروِ رواية القعنبي، وروى «موطَّأ ابن القاسم» و«موطأ ابن وهب»، وفيهما جميعًا «اليماني»، كما روى يحيى، وهي بأيدي أهل بلدنا في الشُّهرة كرواية يحيى، ولكنَّ الغلط لا يسلم منه أحد، وأمَّا إدخاله في حديث عبد الرَّحمن بن عوف: «الأسود»، فكذلك رواه أكثر رواة «الموطَّأ»، فابن وضَّاح في هذا معذور؛ ولكنَّه لم يكن ينبغي له أن يزيد في رواية الرَّجل، ولا يردَّها إلى رواية غيره»[٢٩].

ومع هذا التَّنبيه من ابن عبد البرِّ فقد تبع بن وضَّاح في بعض ذلك فأخطأ كخطئِه، ومثال ذلك ما ذكره الدَّاني في «أطراف الموطَّأ» في مرسل الزُّبير بن عبد الرَّحمن بن الزَّبير، قال: «قيَّد ابن وضَّاح: الزَّبير بفتح الزَّاي في الاسمين معًا، والجدّ والد عبد الرَّحمن لا خلاف أنَّه كذلك، وأما الزُّبير بن عبد الرَّحمن راوي الحديث فهو عند يحيى بن يحيى بضمِّ الزَّاي، وهكذا قيَّده ابنه عبيد الله، وكذا هو في رواية ابن بكير عن مالك،

وهو قول البخاري، وصوَّبه الدارقطني، وغيره.

وقال محمَّد بن يحيى الحذَّاء في كتاب «التَّعريف برجال الموطَّأ»[٣٠] له: «عبد الرَّحمن بن الزُّبير الأوَّل ـ يعني بالذكر ـ بضمِّ الزَّاي، والثَّاني بالفتح، هكذا رويناه، وهكذا قاله لي عبد الغنيِّ بن سعيد، وقال لي: هكذا قال لي عليّ بن عمر الدَّارقطني، وهكذا نقله البخاريُّ في «التَّاريخ»».

قال الشَّيخ أبو العبَّاس ﷺ: «وزعم أبو عمر بن عبد البرِّ أنَّهما معًا بفتح الزَّاي، تابع ابن وضَّاح في ذلك، وغيَّرَا رواية يحيى بن يحيى على طريق الإصلاح بزعمهما، ولم يأتيا بشيء» اهـ[٣١].

وبناء على هذا، فإنَّ أصحَّ الرِّوايات عن يحيى ابن يحيى رواية ابنه عبيد الله، فهي أسلم من رواية ابن وضَّاح، فقد يغيِّر ابن وضَّاح، ويخطئ في تغييره، ويأتي من بعده فينسب الوهم فيه إلى يحيى أو مالك.

*** المطبوع من رواية يحيى اللَّيثي:**

طُبع كتاب «الموطَّأ» برواية يحيى اللَّيثي عدَّة طبعات، بالأسانيد، ومجرَّدة عن الأسانيد، وبعضها مع شروحات الأئمَّة كـ «التَّمهيد»، و«المنتقى»، و«تنوير الحوالك»، وغيرها.

ومن أبرز تلك الطَّبعات الَّتي انتشرت بين العلماء وطلاَّب العلم في المشرق والمغرب، طبعة بتحقيق: محمَّد فؤاد عبد الباقي، وقد طُبعت عدَّة مرَّات، وهي طبعة غير دقيقة، انتهج محقِّقها منهجًا غريبًا في ضبط هذه الرِّواية، فذكر المحقِّق في مقدِّمة الكتاب طريقته في التَّحقيق قال:

«جمعت بين يديَّ من نسخ «الموطَّأ» النُّسخ الآتية:

ثم ذكر ستَّةَ نسخٍ كلَّها مطبوعة، وآخرها المطبوعة بشرح الزّرقاني، ثمَّ قال:

«فكنت أقارن نصوص بعضها ببعض، فما اتَّفق الجميع عليه، وأيقنت أنَّه الصَّواب أثبته، وما اختُلف فيه رجَّحت الجانب الذي به «شرح الزّرقاني»، والنُّسخة المطبوعة في الهند عام (١٣٠٧هـ) بعد أن أرجع إلى معاجم اللُّغة وكتب الحديث والرِّجال، فخلصتْ لي من هذه النُّسخ جميعها نسخة ما آلوت جهدًا أن تكون أصحَّ ما أخرجته المطابع الإسلامية في العالم الإسلامي»[٣٢].

قلت: ومن كلامه هذا يتبيَّن ما يلي:

١ ـ أنَّه لم يعتمد على أيِّ نسخة مخطوطة للموطَّأ مع توافرها وكثرتها.

وهذا العمل جعله يُسقط من طبعته بعض الأحاديث التي قد تكون سقطت من الأصول التي اعتمدها، مثاله حديث يحيى بن سعيد المرسل: «أنّ

النَّبيَّ ﷺ كُفِّن في ثلاثة أثواب سحولية ليس فيها قميص ولا عمامة»، وهو ثابت في نسخة المحمودية (ل: ٣٧/ ب) لموطأ مالك برواية يحيى الليثي، وسقط أيضًا من «شرح الزّرقاني على الموطَّأ»!

وقد أضاف إلى رواية يحيى بعض الأحاديث الَّتي لم يرْوِها يحيى عن مالك، مثاله: حديث مالك، عن طلحة بن عبد الملك الأَيْلي، عن القاسم بن محمَّد، عن عائشة أمِّ المؤمنين، عن النَّبيِّ ﷺ قال: **«مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلاَ يَعْصِهِ»**[٣٣].

وكذا ثبت الحديث في «تنوير الحوالك» و«شرح الزّرقاني»، والصَّواب أنَّه ليس عند يحيى بن يحيى، فقد خلت منه نسختَا المحمودية، ونسخة شستربيتي.

وقال ابن عبد البرِّ: «ليس عند يحيى عن مالك، وقد رواه القعنبي وأبو مصعب وابن بكير، والتنيسي، وابن وهب، وابن القاسم، وجماعة الرُّواة للموطَّأ، فكرهنا أن نخلي كتابنا من ذكره؛ لأنَّه أصل من أصول الفقه، وما أظنَّه سقط عن أحد من الرُّواة إلَّا عن يحيى ابن يحيى، فإنِّي رأيته لأكثرهم، والله أعلم»[٣٤].

وقال أيضًا: «لم يفُت يحيى بن يحيى في «الموطَّأ» حديثٌ من أحاديث الأحكام ممَّا رواه غيره في «الموطَّأ» إلَّا حديث طلحة بن عبد الملك هذا، وسائر ما رواه غيره من الأحاديث في «الموطَّأ» إنَّما هي أحاديث من أحاديث الجامع ونحوه، ليست في أحكام، وأكثرها أو كلُّها معلولة، مختلف فيها عن مالك، وقد توبع يحيى، تابعه جماعة من رواة «الموطَّأ» على سقوط كلّ ما أسقط من تلك الأحاديث من «الموطَّأ»، إلَّا حديث طلحة هذا وحده، وما عداه فقد تابعه على سقوطه من «الموطَّأ» قوم، وخالفه آخرون، وقد ذكرنا ذلك في آخر هذا الباب، ويحيى آخرهم عرضًا، وما سقط من روايته فعن اختيار مالك وتمحيصه، والله أعلم»[٣٥].

وأورده الدَّاني في «أطراف الموطَّأ» في قسم الزِّيادات على رواية يحيى، وقال: «عند ابن القاسم، وابن بكير، والقعنبي، ومطرف، ويحيى النَّيسابوريِّ، وعامَّة الرُّواة.

وعند يحيى بن يحيى صاحبنا منه ذكر المعصية خاصَّة مرسلًا، ذكر ذلك مالك وفسَّره، ولم يكمله هناك، ولا أسند الطَّرف المذكور منه»[٣٦].

وقال ابن خلفون: «وهذا الحديث سقط من «موطَّأ يحيى بن يحيى الأندلسي»، وهو عند سائرِ رواة «الموطَّأ»»[٣٧].

فهذا الحديث ـ بلا شكٍّ ـ أسقطه يحيى من روايته، وثبت عند سائر الرُّواة، ولا يوجد في النُّسخ

الخطِّيَّة التي بين أيدينا، ومن العجب أن يعتمِد محقِّق «عوالي مالك» لأبي أحمد الحاكم: محمَّد الحاج النَّاصر على طبعة دار الفكر ببيروت لموطَّأ مالك برواية يحيى، ويستدرك على حافظ المغرب ابن عبد البرِّ هذا الحديث بكلام لا يُخاطَب بمثله طالب علمٍ، فكيف بحافظ المغرب، فقال ـ هداه الله ـ: «من غرائب ابن عبد البرِّ قوله في «التَّمهيد» ـ ثمَّ أورد كلامَه المتقدِّم ـ ثمَّ قال: لا يحزُنك يا أبا عَمرو (كذا والصواب عُمر) أنَّك لم تجده في «موطَّأ يحيى»، فهو فيه تحت رقم: (١٠٣١)، ك: النُّذور والأيمان، ب: ٤ ـ ما لا يجوز من النُّذور في معصية الله، (ص٢٩٦)، ولم يشد (كذا) عن غيره من رواة «الموطَّأ»، ومن عجبٍ أنَّك لم تجده عنده، وكان الأولى أن تتَّهم نسختَك من «الموطَّأ» أو حفظك له، أو مَن رويتَه عنهم، وتحاول استقراء البحث قبل أن تقع في هذه الأعجوبة، ولكن لكل جواد كبوة» اهـ.

أقول: من هو أولى بهذا المقال، آبن عبد البرِّ أم محمَّد النَّاصر، أنسختُك أولى وأتقن أم نسخة حافظ المغرب ومَن تبعه من أئمَّتِنا الأعلام!! ومَن هم أهل الاستقراء إن لم يكن ابن عبد البرِّ ومن تبعه من الأئمَّة؟! وهو يُخطِّأ أمثال هؤلاء بما في طبعة لا يُدرى كيف طُبعت، وما هي الأصول التي اعتمدت في طباعة دار الفكر!! نترك الجواب للقارئ.

ثمَّ أعود لِما تضمَّنه كلام محمَّد فؤاد عبد الباقي في مقدِّمة تحقيقه، فأقول:

٢ ـ لم يبيِّن ما هي الرِّواية المعتمدة، هل هي رواية ابن وضَّاح، أم هي رواية عبيد الله عن أبيه، وبينهما من الفروق ما تقدَّم، فهو تارة يوافق عبيد الله، وتارة ابنَ وضَّاح، وتارة يخالفهما!

٣ ـ أنَّه يصحِّح بالرُّجوع إلى كتب التَّراجم والحديث وغيرها، فبالتَّالي يصلح الخطأ الذي وقع فيه يحيى بن يحيى مثلًا، وتصير روايتُه تابعةً لرواية غيره عن مالك، فينتفي ما يذكره العلماء عنه من الأخطاء التي وقع فيها؛ لذا لا يكاد يوجد في هذه الطَّبعة ما يذكره العلماء من الأخطاء التي وقع فيها يحيى إلَّا نادرًا، ولو أصلح المحقِّق ذلك وبيَّن لَهَانَ الأمرُ، لكنَّه يصلح ويسكت، وقد تقدَّم في كلام أهل العلم نقض هذه الطريقة.

في آخر كلامه ما يبيِّن أنَّ نسخته هذه ملفَّقة من عدَّة نسخٍ ومصحَّحة من عدَّة كتب، فلم تعُد لها صلة بنسخة يحيى اللَّيثي، لذلك وقع المحقِّق في أخطاء جسيمة كوصل ما يرسله يحيى، ورفع ما يوقِفه، وأمثلة ذلك كثيرة، منها:

١ ـ وقع في «الموطَّأ» ـ رواية يحيى بن يحيى ـ

(٢/ ٣٥٨/ رقم ٩): عن نافع عن ابن عمر: «أنَّ رسول الله ﷺ رأى في بعض مغازيه امرأة مقتولة، فأنكر ذلك، ونهى عن قتل النِّساء والصِّبيان»، كذا هو في المطبوع موصولًا.

وهذا خطأ؛ لأنَّ رواية يحيى لهذا الحديث عن مالك عن نافع مرسلة لم يذكر فيها ابن عمر، وانظر: نسخة المحمودية (ل: ٥٦/ ب).

وقال ابن عبد البرِّ: «هكذا رواه يحيى عن مالك عن نافع مرسلًا» [«التَّمهيد» (١٦/ ١٣٥)].

والحديث أورده أبو العبَّاس الدَّاني في «أطراف الموطَّأ» في مرسل نافع (٤/ ٥٩٦).

٢ ـ وقع في «الموطَّأ» (١/ ٣٣٦/ رقم ٢٤٤) عن إبراهيم بن عقبة، عن كريب مولى عبد الله بن عبَّاس، عن ابن عبَّاس: أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ بامرأة وهي في محفّتها، فقيل لها: هذا رسول الله، فأخذت بضبعي صبيٍّ، فقالت: ألهذا حجٌّ يا رسول الله؟ قال: «**نَعَمْ وَلَكِ أَجْرٌ**»، كذا ورد الحديث موصولًا في الطَّبعة.

وورد في نسختي المحموديَّة (ل: ٧٥/ ب)، و(ل: ١٠٦/ أ)، ونسخة شستربتي (ل: ٢٢/ ب)، عن كريب مولى عبد الله بن عبَّاس: «أنَّ رسول الله...»، مرسلًا.

وذكره أبو العباس الدَّاني في «أطراف الموطَّأ» في مرسل كريب (٤/ ٥٦٢).

وأمثلة هذا الباب كثيرة، نكتفي بما أوردته.

وعلى هذه الطَّبعة عدَّةُ ملحوظات سوى ما تقدَّم، منها:

١ ـ السَّقْطُ والتَّصحيفُ، وأمثلتُه كثيرةٌ.

٢ ـ ذِكر الكتب والتَّبويب، وقد انتهج المحقِّق في ذلك نهجًا غريبًا، حيث غيَّر تبويبات مالك وذِكر كتبه، وكما قيل: «فقهُ البخاري في تبويبه»، فكيف بمالك شيخ شيوخ البخاري.

ومثالُ ذلك كتاب الجامع آخر «الموطَّأ»، فمالكٌ وضع كتابًا جامعًا، جمع فيه أحاديثَ عدَّة، في مواضيع مختلفة، بوَّب عليها تبويباتٍ عدَّة تدلُّ على فقه الحديث ومعناه، فالجامع كتابٌ واحدٌ، مبوَّب إلى عدَّة أبواب؛ لكنَّ المحقِّق تجاسر وغيَّر، فذكر كتبًا في الجامع وبوَّب تلك الكتب، وذكر تحتها الأحاديث حسب ما اتَّفق، فالنَّاظر فيها يجد أنَّها لا توافق التَّرتيب الذي وضعه مالك.

والغريب في ذلك أنَّ المحقِّق لم يكتف بما في «شرح الزّرقاني»، فالزّرقاني لم يذكر إلَّا كتاب الجامع، وتحت هذا الكتاب عدَّة أبواب في قضايا مختلفة كما وضعه مالك رحمة الله عليه، والله أعلى وأعلم.

فمن هذا العرض يتبيَّن لنا أنَّه لا علاقة بما طبعه

محمَّد فؤاد عبد الباقي برواية يحيى اللَّيثي، فطبعته لم تكن مبنيَّة على أساس علميٍّ متين، بل كانت على تغيير وتبديل لِما كانت عليه رواية يحيى اللَّيثي رحمه الله.

وللكتاب طبعةٌ أخرى أحسن وأتقن من هذه الطبعة، نشرها: د. بشار عواد معروف، وطَبَعَتْهَا دارُ الغرب الإسلامي، وكان بشارٌ تنبَّه لما وقع فيه محمَّد فؤاد عبد الباقي من أخطاء جسيمة، فانتقده نقدًا شديدًا في ذلك بعد أن كان تبعه في بعض أخطائه في تحقيقه لموطَّأ مالك برواية أبي مصعب الزُّهري.

وطبعة بشار تميَّزت بأنَّها محقَّقة على أصول خطيَّة، منها نسخة نفيسة بغدادية متقدِّمة النَّسخ، ونُسَخ أخر جعلها مساعدة متأخِّرة النَّسْخ.

إلَّا أنَّه لم يتنبَّه لكثير من الفوارق بين رواية عبيد الله عن أبيه، ورواية محمَّد بن وضَّاح عن يحيى اللَّيثي، فأدمج إحدى الرِّوايتين في الأخرى، وكذا وقع في بعض الأخطاء سأشير إلى بعضها، والذي يبدو أنَّ الذي أوقعه في ذلك اقتصاره على نسخ معدودة من رواية يحيى ـ مع اعتذاره عن ذلك ـ وكما قدَّمت فنُسخ موطأ يحيى كثيرة، وسبق أن ذكرت نموذجًا من نسخ نفيسة في مكتبة المحمودية وغيرها.

ومن تلك الأخطاء التي وقع فيها، وقد يكون بعضها من النُّسخ التي اعتمدها:

المثال الأول: ذكر الحديث (رقم ٣٤٦) في باب: في العَتَمَة والصُّبح، عن أبي هريرة مرفوعًا: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ إِذْ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ...**»، الحديث، ثمَّ ذكر معه حديث: «**الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ**»، وبعده حديث: «**لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ...**» الحديث.

وهذا الحديث الأخير ليس عند يحيى بن يحيى في هذا الموضع، إنَّما أورده في باب: ما جاء في النِّداء، وأسقطه في هذا الموضع وذكر فقط الحديثين اللَّذين قبله، مع أنَّ الحديث الثَّالث هو الموافق للتَّرجمة، وأصلحه محمَّد بن وضَّاح فذكره في هذا الباب، ولم يُنبِّه المحقِّق على ذلك.

وهذا الحديث لم يثبت في نسختيّ المحموديَّة (ل: ٢٣/أ)، و(ل: ٢٥/ب) وهما من رواية عبيد الله عن أبيه.

وقال ابن عبد البرِّ: «هذه ثلاثة أحاديث في واحد، كذلك يرويها جماعة من أصحاب مالك، وكذا هي محفوظة عن أبي هريرة، أحدها: حديث الذي نزع غصن الشَّوك عن الطَّريق، والثَّاني: حديث الشُّهداء، والثَّالث: قوله: «**لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ**»، إلى آخر الحديث، وهذا القسم الثَّالث

سقط ليحيى من باب، وهو عنده في باب آخر منها ما كان ينبغي أن يكون في باب العَتَمَة والصُّبح، وقوله: «**وَلَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ**» إلى قوله: «**وَلَوْ حَبْوًا**»، فلم يَرْوِه عنه ابنه عبيد الله في ذلك الباب، ورواه ابن وضَّاح عن يحيى»[38].

وذكر أبو العبَّاس الدَّاني الفصلين الأوَّلين من الحديث، ثمَّ قال: «هذا الحديثُ فصلان، وليس فيه عند يحيى بن يحيى ما تقتضيه التَّرجمةُ، وسائرُ رواة «الموطَّأ» يَصِلون به الحديثَ الَّذي قبله (أي حديث شهود العَتَمَة)، وبه يُطابقها»[39].

المثال الثَّاني: ذكر حديث أبي هريرة برقم (١٣٢٢)، وفيه قصَّة خروجهم إلى خيبر والغلول من الغنائم، وجاء أنَّ القصَّة كانت بخيبر، والصَّواب أنَّ يحيى اللَّيثي ذكر أنَّ القصَّة وقعت في حنين في موضعين من الحديث، وأصلح ذلك ابن وضَّاح وردَّه إلى «خيبر»، ولم يُنبِّه المحقِّق على ذلك.

قال أبو العبَّاس الدَّاني: «خيبر مذكورةٌ في موضِعَين من هذا الحديثِ، وتصحَّفَ ليحيى بن يحيى في كِلَا الموضِعَين بحُنين بِنُونَيْنِ، وأصلحَه ابنُ وضَّاح فَرَدَّ «خيبر»، بالرَّاء والخاء المعجمةِ كما عند سائرِ الرُّواة»[40].

قلت: كذا وقع في نسختيّ المحمودية (ل: ٥٨/ ب)، (ل: ٨٦/ ب) وأثبت خيبر في هامشها، وكذا في نسخة شستربتي (ل: ٢٩/ ب)، وبيَّن فيها أنَّ خيبر من تغييرات ابن وضَّاح.

وهناك أمثلة أخرى غير ما ذكرت لا نطيل بذكرها.

وبالجملة فهذه أحسن الطَّبعات لموطَّأ مالك برواية يحيى بن يحيى اللَّيثي، ولعلَّ المحقِّق يستدرك ذلك في طبعات قادمة للكتاب، والله الموفِّق للصَّواب، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وآله.

---

(١) «تاريخ العلماء» (٢/ ١٧٦، ١٧٧).
(٢) «تاريخ العلماء» (٢/ ١٧٦، ١٧٧).
(٣) «أخبار الفقهاء والمحدثين» (٣٥٨).
(٤) «أخبار الفقهاء والمحدثين» (٣٥٨).
(٥) «الانتقاء» (١٠٩).
(٦) «جذوة المقتبس» (٣٦٠).
(٧) «الإرشاد» (١/ ٢٦٥).
(٨) «أخبار الفقهاء والمحدِّثين» (٣٦٧).
(٩) انظر: «أخبار الفقهاء والمحدِّثين» للخشني (ص ٣٥٩، ٣٦٥)، «تاريخ العلماء» (٢/ ١٧٦)، «الانتقاء» (ص١٠٦).
(١٠) «ترتيب المدارك» (٣/ ٣٨٠).
(١١) انظر: «إتحاف السَّالك» (١٣٧).
(١٢) «أخبار الفقهاء والمحدِّثين» (٣٤٨، ٣٤٩).
(١٣) «السِّير» (١٠/ ٥٢٣).

(١٤) هو أحد رواة «الموطَّأ» عن يحيى بن يحيى عن مالك، كما سيأتي.

(١٥) انظر: «أخبار الفقهاء والمحدِّثين» (٣٤٩ ـ ٣٥٨).

(١٦) «التَّمهيد» (٧/ ١٠٢).

(١٧) «ترتيب المدارك» (٣/ ٣٨١).

(١٨) وممَّن روى أيضًا عن يحيى بن يحيى: إبراهيم بن محمَّد ابن باز يُعرف بابن القزاز، أبو إسحاق القرطبيُّ، توفي سنة (٢٧٤هـ)، كان فقيهًا عالمًا زاهدًا وَرِعًا.
انظر: «تاريخ العلماء» (١/ ١٨)، وروايته للموطَّأ في «فهرست ابن خير» (ص٧٧، ٧٩، ٨٠).

(١٩) انظر الأسانيد المتَّصلة بعبيد الله ومحمَّد بن وضَّاح عن يحيى بن يحيى اللَّيثي في «التَّمهيد» (١/ ١١)، «الفهرست لابن خير» (٧٧ ـ ٨٣)، «فهرس ابن عطيَّة» (٦٣ ـ ٦٤)، (٧٨ ـ ٨٠)، (٩١، ٩٧، ١٠٧، ١٠٩، ١٣٠)، «الغنية» للقاضي عياض (٢٩ ـ ٣٢) (١٠٦)، «صلة الخلف» (٣٣ ـ ٣٥).

(٢٠) «أخبار الفقهاء والمحدِّثين» (٢٢٩).

(٢١) «تاريخ العلماء بالأندلس» (١/ ٢٩٢)، وانظر: «جذوة المقتبس» (٢٥٠)، «السِّير» (١٣/ ٥٣١).

(٢٢) «أخبار الفقهاء والمحدِّثين» (١٢٢)، وذكر في ترجمته أسماء من روى عنهم ابن وضَّاح من أهل الأمصار.

(٢٣) «تاريخ العلماء بالأندلس» (٢/ ١٧)، وانظر: «جذوة المقتبس» (٨٧)، «السِّير» (١٣/ ٤٤٥).

(٢٤) «الإلماع» (١٨٥، ١٨٦)، وانظر: «مقدِّمة ابن الصَّلاح في علوم الحديث» (١٧٥).

(٢٥) «مشارق الأنوار» (٣، ٤).

(٢٦) يكنَّى أبا عبد الملك، كان بصيرًا بالحديث متصرِّفًا في فنون العلم، توفي سنة (٣٣٨هـ) [«تاريخ العلماء» (١/ ٥٠)].

(٢٧) «تاريخ العلماء بالأندلس» (٢/ ١٧).

(٢٨) «أخبار الفقهاء والمحدِّثين» (١٣٠)، وذكر الخشني جملة من أوهامه في الأحاديث.

(٢٩) «التَّمهيد» (٢٢/ ٢٥٨، ٢٥٩).

(٣٠) انظره في «رجال الموطَّأ» (ل: ٢٥/ أ).

(٣١) «الإيماء إلى أطراف أحاديث كتاب الموطَّأ» (٤/ ٥٥٣ ـ ٥٥٥).

(٣٢) انظر: المقدِّمة (١٩، ٢٠).

(٣٣) انظر: (٢/ ٣٧٩) (٨).

(٣٤) «التَّمهيد» (٦/ ٨٩).

(٣٥) «التَّمهيد» (٦/ ١٠٠).

(٣٦) «الإيماء إلى أطراف أحاديث كتاب الموطَّأ» (٤/ ٤٦٢).

(٣٧) «أسماء شيوخ مالك بن أنس» (١٨٣).

(٣٨) «التَّمهيد» (٢٢/ ١١).

(٣٩) «أطراف الموطَّأ» (٣/ ٤٤٢).

(٤٠) «أطراف الموطَّأ» (٣/ ٥٢٧).

منهج أهل السنة والجماعة
في الحكم بالتكفير بين الإفراط والتفريط

د/ محمد علي فركوس

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على مَن أرسله اللهُ رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فإنَّ اللهَ تعالى شرَّف أمَّةَ محمَّد ﷺ وجعلها أمَّة وسطًا بين سائرِ الأُمم، قال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣]، كما تجلَّتْ نعمةُ الله تعالى في أن جعل أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ وَسَطًا في هذه الأمَّة، عدولًا بين سائر الفِرَق الأخرى، في كلِّ المسائل المتنازَع عليها، فالوسطيَّة من الخصائص الَّتي امتاز بها منهجُ أهلِ السُّنَّة في الاعتقاد، بينما أهلُ الفِرَق الأخرى أَصَّلوا لأنفسهم قواعدَ وحاكموا إليها نصوصَ الشَّرع، فما وافق منها قواعدَهم عضَّدوا بها مقالتهم، وما خالف ردُّوه، حتَّى أصبحت مناهجهم تدور بين الغُلُوِّ والجفاء، وبين الإفراط والتَّفريط، لذلك كان أهلُ السُّنَّة أسعدَ النَّاس بموافقتهم الحقَّ والصَّوابَ، بتسليمهم المطلق لنصوص الكتاب والسُّنَّة، فلا يردُّون منها شيئًا، ولا يعارضونها بشيء، وإنَّما يقفون حيث تقف بهم النُّصوصُ من غير اعتداءٍ عليها ولا تجاوز لها بتحكيم قواعدَ عقليَّةٍ ولا آراءَ وأقيسةٍ منطقيَّةٍ، ممتثلين في ذلك لقوله تعالى: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١** ﴾ [الحجرات: ١]، فكانوا على هَدْيٍ قاصدٍ وصراطٍ مستقيم ملتَزِمين التَّوسُّط بين الإفراط والتَّفريط اللَّذين هما سِمَتَا مناهج الفِرَقِ الأخرى.

هذا، ومن صُوَرِ وَسَطيَّة أهلِ السُّنَّة: اعتدالُ منهجِهم في باب الأسماء والأحكام والوعد والوعيد بين الخوارجِ الَّذين كفَّروا مرتكبَ الكبيرة

وحكموا بخلوده في النَّار، وجرَّدوه من الإيمان بالكليَّة، وحرَموه من الشَّفاعة، والمعتزلةِ الذين جعلوا مرتكبَ الكبيرة بين منزلتين، فليس مؤمنًا وليس كافرًا، وأنَّه مخلَّدٌ في النَّار غير أنَّ عذابه فيها دون عذاب الكفَّار، وبين المرجئةِ القائلين بأنَّه لا تضرُّ مع الإيمان معصيةٌ كما لا تنفع مع الكفر طاعةٌ، ومعنى ذلك أنَّ ارتكابَ الكبائر ـ عندهم ـ لا تؤثِّر في إيمان المؤمن، فيبقى كامل الإيمان، فإيمان الفاسق وإيمان الأنبياء والصَّالحين سواء لا يزيد ولا ينقص.

أمَّا التَّكفير ـ عند أهل السُّنَّة ـ فحُكْمٌ شرعيٌّ يَستمِدُّ قوَّتَهُ ونفوذَه من مرجعيةِ الشَّريعةِ الإسلاميةِ، فلا يترتَّب حكمُهُ إلَّا على أساس ميزان الشَّرع القائم على الكتاب والسُّنَّة، وفهم سلف الأمَّة.

فالتَّكفير حقٌّ لله تعالى وحده، وليس للعباد حقٌّ فيه، وتفريعًا على هذا الأصل فإنَّ أهلَ السُّنَّة والجماعةِ لا يحكمون بمَحْضِ الهوى، وإنَّما يكفِّرون مَن قام الدَّليلُ الشَّرعيُّ مِن الكتاب والسُّنَّة على كُفره، فلا يكفِّرون أهلَ القِبلة بمُطلق المعاصي والذُّنوبِ كما هو صنيعُ الخوارج، ولا يَسْلِبُونَ الفاسقَ المِلِّيَّ الإيمانَ بالكليَّةِ ولا يخلِّدونه في النَّار كما تفعله المعتزلةُ، وإنَّما مُعتقدُ أهلِ السُّنَّة في صاحب الكبيرة والمعصيةِ أنَّه مؤمنٌ بإيمانه فاسقٌ بكبيرته أو مؤمنٌ ناقصُ الإيمان، فلا يُعطى الاسمَ المطلق ولا يُسْلَبُ مُطلق الاسم[1].

قال أبو عثمان الصَّابوني ـ رحمه الله ـ: «ويَعتقدُ أهلُ السُّنَّة أنَّ المؤمن وإنْ أذنب ذنوبًا كثيرةً، صغائرَ كانت أو كبائرَ فإنَّه لا يَكْفُرُ بها، وإن خرج من الدُّنيا غير تائب منها، ومات على التَّوحيد والإخلاص، فإنَّ أمره إلى الله عزَّ وجلَّ، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنَّة يوم القيامة سالِـمًا غانمًا غير مُبْتَلًى بالنَّار ولا معاقَب على ما ارتكبه من الذُّنوب واكتسبه واستصحبه إلى يوم القيامة من الآثام والأوزار، وإن شاء عاقبه وعذَّبه مدَّةً بعذاب النَّار، وإذا عذَّبه لم يخلِّده فيها بل أعتقه وأخرجه منها إلى نعيم دار القرار»[2].

كما أنَّ أهلَ السُّنَّة والجماعةِ لا يُكفِّرون مخالفيهم لمجرَّد المخالفة، وإنَّما يعتقدون في الفِرَق الثِّنْتَيْنِ والسَّبعين المخالِفة لأهلِ السُّنَّة أنَّ حُكمهم هو حُكم أهلِ الوعيد من أهلِ الكبائر والمعاصي مِن هذه الأُمَّة الَّذين لهم حُكم الإسلام في الدُّنيا، وهم في الآخرة داخلون تحت مشيئة الله، فإنْ شاء غفر لهم برحمته سبحانه وإن شاء عذَّبهم بعدله سبحانه، ثمَّ مآلُهم إلى الجنَّة.

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بعد ذِكْرِ الخوارج: «وإذا كان هؤلاء الَّذين ثبت ضلالُهم بالنصِّ

والإجماع لم يكفَّروا مع أمرِ الله ورسولِه ﷺ بقتالهم، فكيف بالطَّوائف المختلفين الَّذين اشتبه عليهم الحقُّ في مسائلَ غلط فيها مَن هو أعلم منهم؟ فلا يحلُّ لأحدٍ من هذه الطوائفِ أن تكفِّر الأخرى، وتستحلَّ دَمَها ومالَها، وإن كانت فيها بدعة محقَّقة، فكيف إذا كانت المكفِّرة لها مبتدعة أيضًا؟ وقد تكون بدعة هؤلاء أغلظ، والغالب أنَّهم جميعًا جهَّال بحقائقِ ما يختلفون فيه»[٣].

وفي معرض ذِكر أهل الأهواء والبدع من الفِرق الثِّنتين والسَّبعين فِرقة فقد عدَّهم ابنُ تيمية من جُملة المسلمين، والوعيد الوارد فيهم كالوعيد في أهل الكبائر، وهو قولٌ سبقه إليه السَّلف والأئمَّة، قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «...إن لم يكونوا في نفس الأمر كفَّارًا لم يكونوا منافقين، فيكونون من المؤمنين، فيُستغفر لهم ويُترحَّم عليهم، وإذا قال المؤمن: ربَّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، يقصد كلَّ مَن سبقه من قرون الأمَّة بالإيمان وإن كان قد أخطأ في تأويلٍ تأوَّله فخالف السُّنَّة أو أذنب ذنبًا فإنَّه من إخوانه الَّذين سبقوه بالإيمان، فيدخل في العموم وإن كان من الثِّنتين والسَّبعين فِرقة، فإنَّه ما من فِرقة إلَّا وفيها خَلْقٌ كثير ليسوا كفَّارًا، بل مؤمنون فيهم ضلال وذنب يستحقُّون الوعيد كما يستحقُّه عصاة المؤمنين، والنبيُّ ﷺ لم يخرجهم من الإسلام بل جعلهم من أمَّته، ولم يقل: إنَّهم يخلَّدون في النَّار، فهذا أصلٌ عظيمٌ ينبغي مراعاته»[٤].

وأهلُ السُّنَّة يُفرِّقون بين الإطلاق والتَّعيين في إصدار حُكم التَّكفير، فقد يكون الفعل أو المقالةُ كُفرًا؛ لكن الشخص المعيَّن الَّذي تلبَّس بذلك الفعلِ أو تلك المقالة لا يُحكم بكفره حتَّى تقام عليه الحُجَّة الرِّساليَّة التي يكفر تاركها، وحتَّى تزال عنه كلُّ شبهة يمكن أن يَعْلَقَ بها؛ لأنَّ كلَّ الفِرَق قد يصدر عنها أقوالٌ كفريَّة، فلا يشهدون على معيَّن من أهل القِبلة أنَّه من أهل النَّار لجواز أن لا يلحقه الوعيد، لفوات شرطٍ أو لثبوت مانع[٥]، فهم لا يكفِّرون إلَّا ببيِّنةٍ شرعيَّةٍ، بعد تحقُّق الشُّروط، منها: أن يكون قوله الكفر عن اختيار وتسليم، أو يكون لازمُ قوله الكفرَ وعُرِضَ عليه فالتزمه، وأن تقوم الحُجَّة عليه ويتبيَّنُها.

وانتفاء الموانع في حقِّه التي تحول دون الحكم بكفره، منها: أن يكون مُغيَّبَ العقل بجنونٍ ونحوِه، أو أن يكون حديث العَهْدِ بالإسلام، أو لم يتسنَّ له معرفة الدِّين إلَّا بواسطة علماء الابتداع يستفتيهم ويقتدي بهم، ومن موانع الحكم على

معيَّنٍ بالكفر أيضًا أن لا تبلغه نصوص الكتاب والسُّنَّة كمن نشأ ببادية بعيدة، أو بلغته أحاديثُ آحاد ولم تثبت عنده، أو لم يتمكَّن من فَهْمِهَا، أو بلغته وثبتت عنده وفهمها؛ لكن قام عنده معارض أوجب تأويلها ونحو ذلك من الموانع.

كما أنَّ أهلَ السُّنَّة والجماعة يُفرِّقون بين مَن اجتهد لإصابة الحقِّ فأخطأ فهو معذورٌ وخطؤه مغفور، وبين مَن عاند بعدما تبيَّن له الحقُّ وبقي مُصِرًّا على مخالفة الأدلَّة والنُّصوص الشَّرعيَّة، فشاقَّ الرَّسولَ واتَّبع غيرَ سبيل المؤمنين، فصفة الكفر لاصقةٌ بفاعله، وبين مَن قصَّر في طلب الحقِّ أو اتَّبع هواه فهو فاسقٌ مذنب، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وأجمع الصَّحابةُ وسائرُ أئمَّةِ المسلمين على أنَّه ليس كلُّ من قال قولًا أخطأ فيه أنَّه يكفر، وإن كان قولُه مخالفًا للسُّنَّة، فتكفيرُ كلِّ مخطِئٍ خلافُ الإجماع»[٦]، وقال ـ رحمه الله ـ في تقرير الأصل السَّابق: «وأمَّا التَّكفير: فالصَّواب أنَّه مَن اجتهد مِن أمَّة محمَّدٍ ﷺ وقَصَدَ الحقَّ، فأخطأ لم يَكْفُر بل يَغفِر له خطأه، ومن تبيَّن له ما جاء به الرَّسولُ، فشاقَّ الرَّسولَ من بعد ما تبيَّن له الهدى، واتَّبع غيرَ سبيل المؤمنين فهو كافر، ومن اتَّبع هواه، وقصَّر في طلب الحقِّ، وتكلَّم بلا علم فهو عاصٍ مُذنبٌ، ثمَّ قد يكون فاسقًا، وقد تكون له حسنات ترجح على سيِّئاته»[٧].

ومن مجمل أصول أهل السُّنَّة والجماعة المتقدِّمة يتجلَّى التوسُّط والاعتدالُ في هذه المسألة الدَّقيقةِ وفي سائرِ مسائلِ الاعتقادِ التي ضَلَّتْ فيها كثيرٌ من الأفهام، وزلَّت فيها كثيرٌ من الأقدام، ومِن مَمَادِحِ أهلِ السُّنَّة والجماعةِ الَّذين عصمهم اللهُ تعالى فيها وهداهم إلى التَّوسُّط والاعتدالِ أنَّهم يُخَطِّئُون ولا يُكفِّرون أحدًا من أهل القِبلة بكلِّ ذنب، بل الأُخوَّة الإيمانيَّةُ ثابتةٌ مع المعاصي، فامتازوا بالعلم والعدل والرَّحمة، فيعلمون الحقَّ الموافقَ للسنَّةِ السَّالمَ من البدعة، ويعدلون مع من خرج منها ولو ظلمهم، ويرحمون الخلق ويحبُّون لهم الخيرَ والهدى والصَّلاحَ، بخلاف أهل الإفراط في التَّكفير فيتميَّزون بالجهل والظُّلم، فقد جعلوا من ليس بكافر كافرًا، وبخلاف أهلِ التَّفريط الآتي تخبُّطُهم من جهل معنى الإيمان فقد غَلَوْا في الجهة المقابلة فجعلوا الكفر ليس بكفر، ومن أسباب الإفراط والتَّفريط عدمُ الاعتماد على الكتاب والسُّنَّة، وخلطُ الحقِّ بالباطل، وعدمُ التَّمييز بين السُّنَّة والبدعة، واتِّباع الظنِّ وما تهوى الأنفسُ، والتَّأويل المنكر،

فهدى اللهُ الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحقِّ بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

هذا، والنُّصوصُ مِن الآيات والأحاديث جاءت صراحةً تحمي أعراضَ المؤمنين والمسلمين وتحمي دينَهم، وتحذِّر التَّحذير الشَّديد من تكفير أحدٍ من المسلمين بغير حقٍّ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾﴾ [النِّسَاء: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزَاب: ٥٨]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «**لاَ يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلاً بِالفُسُوقِ وَلاَ يَرْمِيهِ بِالكُفْرِ إِلَّا ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ**»[٨]، وقال ﷺ ـ أيضًا ـ: «**لَعْنُ المُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ، وَمَنْ رَمَى مُؤْمِنًا بِالكُفْرِ فَهُوَ كَقَتْلِهِ**»[٩]، فإذا كان تكفير المعيَّن على سبيل الشَّتم كقتله، فكيف يكون تكفيره على سبيل الاعتقاد؟ قال ابن تيمية: «فإنَّ ذلك أعظم من قتله بلا شكٍّ، إذ كلُّ كافرٍ يُباحُ قتلُه، وليس كلُّ من أُبيح قتله يكون كافرًا»[١٠]، ولأنَّ إطلاقَ الكفر بغير حقٍّ على المؤمن لَـمْزٌ في الإيمان نفسه، بل إنَّ سوءَ الظنِّ بالمسلم والنَّيلَ منه محرَّمٌ فكيف يُحكَم بردَّته وتكفيره؟!

فالواجب على المسلم ـ إذن ـ عدم الخوض في هذا الأمر الجَلَلِ من غير أن يكون ممكَّنًا شرعيًّا، قال الشَّوكاني ـ رحمه الله ـ: «اعلم أنَّ الحكمَ على الرَّجل المسلمِ بخروجه من دين الإسلام ودخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يُقْدِمَ عليه إلَّا ببرهان أوضحَ من شمس النَّهار، فإنَّه قد ثبت في الأحاديث الصَّحيحة المرويَّة عن جماعةٍ من الصَّحابة أنَّ: «**مَنْ قَالَ لأَخِيهِ يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا**»[١١]»[١٢]، كما لا يجوز تكفيره لمجرَّد الهوى ولا بنظر العقل ولا بطريقة تأصيل أصول عقليَّة يكفِّر المسلم من خالفها؛ لأنَّ التَّكفير حكم شرعيٌّ يراعى فيه الدَّليل الشَّرعي دائمًا، قال ابن تيميَّة ـ رحمه الله ـ: «والكفر هو من الأحكام الشَّرعية، وليس كلُّ من خالف شيئًا عُلِمَ بنظر العقل يكون كافرًا، ولو قدِّر أنَّه جحد بعضَ صرائح العقول لم يُحكَم بكفره حتَّى يكون قوله كفرًا في الشَّريعة»[١٣]، كما أنَّه حريٌّ بالتَّنبيه عن عظم أمر تكفير المسلم، وخطورة نتائجه وما يورثه من البلايا والرَّزايا، من جملتها استحلال دمه وماله، وفسخ العصمة بينه

وبين زوجه، وامتناع التَّوارث، وعدم الصَّلاة وراءه والصَّلاة عليه، ومنع دفنه في مقابر المسلمين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦]، فعلينا أن نجتنب الشرَّ، ونقتربَ من الخير ونعملَ على تحصيله، ونسلكَ سبيل الإيمان ونَثْبُتَ عليه، فإنَّ فيه الفوز بالسَّعادة الأخروية التي لا تتحقَّق باتِّباع الأهواء، واختراع الآراء، وادِّعاء تحليَّات، وترجِّي أمنيَّات، وإنَّما يتحقَّق بلزوم ما أنزل الله وحيًا مبينًا، وهديًا قويمًا، وصراطًا مستقيمًا، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣].

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين، وصَلَّى اللهُ على نبيِّنا محمَّدٍ، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، وسلَّم تسليمًا.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٣/ ١٥١، ١٥٢)، و«شرح العقيدة الطَّحاوية» لابن أبي العزِّ: (٣١٦، ٣٦٩).

(٢) «عقيدة السَّلف أصحاب الحديث» للصابوني: (٧١ ـ ٧٢).

(٣) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٣/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣)، وانظر تقرير منهج أهل السُّنَّة لهذه المسألة في المصدر السَّابق: (٣/ ٣٤٨) وما بعدها (٧/ ٢١٧، ٢١٨).

(٤) «منهاج السنَّة» لابن تيمية (٥/ ٢٤٠ ـ ٢٤١).

قلت: وإنَّما هذه الفِرَقُ الثِّنتان والسَّبعون معدودةٌ من جُملة المسلمين إذَا أخطأت في عقيدتها، ولم يكن باطنُ مذهب الفِرقة معاندةَ الرَّسول ﷺ، أو تقوم حقيقة مذهبها على تعطيل الصَّانع، أو إبطال الاحتجاج بالشَّريعة، أو إبطال التَّكاليف الشَّرعية، فإن عُلِمَ من سبب نشوء الفرقة إبطان الكفر وتعطيل الشَّريعة ونحوها وتجلَّى ذلك من خلال مقالات أئمَّتها وما يؤول إليه كلامهم فلا تعدُّ هذه الفرقة من جملتهم بل خارجة عنهم، وبهذا يَنْضَبِطُ القولُ في الحكم على الفرق.

(٥) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٠/ ٣٧٠ ـ ٣٧٢) (٣٥/ ١٦٥ ـ ١٦٦).

(٦) المصدر السابق (٧/ ٦٨٥).

(٧) المصدر السابق (١٢/ ١٨٠).

(٨) أخرجه البخاري في الأدب (١٠/ ٤٦٤): باب ما ينهى عن السِّباب واللَّعن، من حديث أبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه.

(٩) أخرجه البخاري في الأدب (١٠/ ٤٦٥): باب ما ينهى عن السِّباب واللَّعن من حديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه.

(١٠) «الاستقامة» لابن تيمية (١/ ١٦٥ ـ ١٦٦).

(١١) أخرجه مسلم في الإيمان: (٢/ ٤٩): باب من قال لأخيه المسلم يا كافر، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(١٢) «السَّيل الجرَّار» للشَّوكاني (٤/ ٤٧٨).

(١٣) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٢/ ٥٢٥).

إرشاد الفحول إلى التأمل في سيرة الرسول ﷺ

عبد الغني عوسات

إنَّ نِعمَ الله تعالى جميلة كريمة، ومِننَه جزيلة عظيمة، وآثارها غزيرة عَمِيمَة، وإنَّ المرء إذا أَنْعَمَ نظره وأمعن فكره فيها؛ وجد في نفسه ما يدفعه إلى حسن التَّأمُّل وطيب التَّحلِّي والتَّجمُّل بهذه النِّعم، مستظهرًا بها، مستشعرًا إيَّاها؛ ذلك أنَّ الله يحبُّ أن يرى أثر نعمته على عبده ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

ونِعمُ الله لا تُحاط بحدٍّ ولا تُحصى بعدٍّ، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فَمِنْ نِعَم الله على العالمين: إرسال النَّبيِّ الأمين إلى النَّاس كافَّةً؛ رحمةً لهم أجمعين، قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ»[1].

ومن بالغ إفضاله وسابغ امتنانه على المؤمنين أن بعث فيهم رسولًا إليهم من جنسهم؛ ليتمكَّنوا من مخاطبته ومجالسته وسؤاله ومراجعته في فهم الكلام عنه والانتفاع به، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ومن أبلغ الامتنان على عباده، إرسال هذا الرَّسول الكريم الَّذي أنقذهم الله به من الضَّلالة، وعصمهم من الهلكة؛ يأمرهم بالمعروف ـ بالتَّوحيد



والطَّاعة وسائر مكارم الأخلاق ـ، وينهاهم عن المنكر ـ الشِّرك والمعصية وسائر مساوئ الأخلاق ـ قال حذيفة بن اليمان للرَّسول ﷺ: «يا رسول الله! إنَّا كنَّا في جاهلية وشرٍّ وجاء الله بهذا الخير...»[٢]، وهو شديد الرَّأفة عليهم وأرحم بهم من وَالِدِيهم، وقال النَّبيُّ ﷺ للأنصار عندما بلغته عنهم مقالة: «**يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي، وَمُتَفَرِّقِينَ فَجَمَعَكُمُ اللهُ بِي**»، [كلَّما قال شيئًا قالوا:] «الله ورسوله أمنُّ...»[٣].

وهو ﷺ في غاية العناية بالمؤمنين والسَّعي في جلب الخير وإيصاله إليهم والحرص على هدايتهم، يدفع عنهم الشَّرَّ ويكْرَهُهُ لهم، ويرأف بهم رأفةَ الأمِّ على ولدها أو أكثر، ويشقُّ عليه ما يشقُّ عليهم ويعنتهم، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨**﴾ [التوبة: ١٢٨]، بل كانت شفقته على قومه كافَّة، مؤمنهم وكافرهم، محبّهم ومبغضهم.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت لرسول الله ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشدَّ من يوم أُحُدٍ؟ قال: «**لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ، وَكَانَ أَشَدّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْم العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيل بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ**».

قَالَ: «**فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ**».

فقال له رسول الله ﷺ: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»[٤].

وفي الحديث بيانُ صبرِ الرَّسول ﷺ في سبيل دعوته، وحلمه على قومه، وصفحه عن خصمه، وتجاوزه عن أذاهم، حيث استأْنَى بهم واستبقاهم من الهلاك الَّذي حاق بهم، أملًا في الله ورجاءَ أن يُخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له.

فيا لها من سريرة نقيَّة، وسيرة طيِّبة مرضيَّة لمن أراد خير الآخرة، وحكمة الدُّنيا، وعدل السِّيرة، واستحقاق الفضائل بأسرها والاحتواء على محاسن الأخلاق كلِّها، فعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يُقبل بوجهه وحديثه على أشرِّ القوم، يتألَّفهم بذلك، فكان يُقبل بوجهه وحديثه عليَّ، حتَّى ظننتُ أنِّي خيرُ القوم، [فقلت: يا رسول الله! أنا خير أو أبو بكر؟ قال: «**أبو بكر**»]، فقلت: يا رسول الله! أنا خيرٌ أو عمر؟ فقال: «**عمر**»، فقلت: يا رسول الله! أنا خير أم عثمان؟ قال: «**عثمان**»، فلما سألتُ رسول الله ﷺ فَصَدَقَنِي، فَلَوَدِدْتُ أنِّي لم أَكُنْ سألته»(٥).

وكانت دعوته لقومه بالحكمة والموعظة الحسنة، حتَّى إنَّ كلامه ليأخذ بمجامع القلوب، ويسبي الأرواح، لما فيه من حلاوة المنطق وسرعة الأداء وعذب الكلام، بعيدًا عن الفحش والتَّفحُّش والجدل والخصام، ممتثلًا أمر الملك العلَّام: ﴿ **ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ** ﴾ [النحل: ١٢٥].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ منتصرًا من مظلمةٍ ظُلمها قطُّ ما لم ينتهك من محارم الله شيء، فإذا انتُهك من محارم الله شيء كان من أشدِّهم في ذلك غضبًا، وما خيِّر بين أمرين إلَّا اختار أيسرهما؛ ما لم يكن مأثمًا»(٦).

وإنَّ دعوته ﷺ قويَّة في مبناها وقويمة في معناها، سَنيَّة معالمها وسُنِيَّة خصائصها قائمة على الفهم السَّليم، وسائرة في النَّهج القويم، على هدي ما جاء في القرآن الكريم: ﴿ **قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾** ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وكان بلاغه جامعًا وعامًّا، وبيانه نافعًا وهامًّا، وكلامه مانعًا وتامًّا، قال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ** ﴾ [المائدة: ٦٧]، فكان القدوة المثاليَّة للدُّعاة الحكماء، والأسوة الواقعية للوعاة الأمناء.

فبلَّغ خير بلاغ، وأدَّى حقَّ أداء، ونصح أتمَّ النُّصح، وأشهد أصحابه على ذلك: «**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟**» فشهدوا له بذلك: «أدَّيت ونصحت وبلَّغت» فأشهد الله على ذلك: «**اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ**»(٧)، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «من حدَّثك أنَّ محمَّدًا كَتَمَ شيئًا ممَّا أُنزل عليه فقد كذب»(٨).

ولم يكن يعظ أصحابه كلَّما جلس إليهم، وإنَّما كان يتخوَّلهم بالموعظة خشيةَ السَّآمة عليهم، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كان النَّبيُّ ﷺ يتخوَّلنا بالموعظة في الأيَّام، كراهية السَّآمة علينا»[٩]؛ لأنَّه ﷺ كان طويل السُّكوت لا يتكلَّم في غير حاجة، ولا يتكلَّم فيما لا يعنيه، ولا يتكلَّم إلَّا فيما يرجو ثوابه، قالت عائشة رضي الله عنها: «إنَّما كان النَّبيُّ ﷺ يحدِّث حديثًا لو عدَّهُ العادُّ لأحصاه»[١٠].

وكان يخطب بما تقتضيه حاجة أصحابه ـ المخاطبين ـ ومصلحتهم، وهو ﷺ سيِّد الفصحاء، وإمام البلغاء، فصيح المنطق واللِّسان، سَلِسُ الأسلوب والبيان، قويُّ الحجَّة وسويُّ المحجَّة، كيف لا وقد آتاه ربُّه جوامع الكلم وخصَّه ببدائع الحكم كما قال عليه السلام: «**أُعْطِيتُ فَوَاتِحَ الكَلَامِ وَجَوَامِعَهُ وَخَوَاتِمَهُ**»[١١] فلأجل ذلك كان نصحه محلَّ الإذعان والقبول، ووعظه يَسْبِي القلوب ويسحر العقول، فعن العرباض بن سارية السُّلمي قال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنَّها موعظة مودِّع فأوصنا... الحديث»[١٢].

وكان ﷺ يستنكر من الكلام ما يشوش الأفهام، ويشكل فهمه على الأنام، فقد خطب رجل عنده ﷺ فقال: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى»، فقال ﷺ: «**بِئْسَ الخَطِيبُ أَنْتَ، قُلْ: وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ**»[١٣].

وعلَّم أصحابه ما لم يكونوا يعلمونه، ممَّا لهم فيه نفع وصلاح من علوم الدُّنيا والدِّين، والفضائل والآداب، وأبواب الخير ودروب المعروف، كما قال تعالى: ﴿**كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١**﴾ [البقرة: ١٥١].

وعن أبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه قال: «لقد تركنا محمَّد ﷺ وما يحرِّك طائر جناحيه في السَّماء إلَّا أذْكَرَنا منه علمًا»[١٤]، وقال رسول الله ﷺ: «**مَا بَقِيَ شَيْءٌ يُقَرِّبُ مِنَ الجَنَّةِ وَيُبَاعِدُ مِنَ النَّارِ إلَّا وَقَدْ بُيِّنَ لَكُمْ**»[١٥]، وجاء رجل إلى سلمان الفارسيِّ فقال: «قد علَّمكم نبيُّكم ﷺ كلَّ شيء حتَّى الخِراءة»[١٦].

وكان ﷺ ليِّنًا سهلًا مع كلِّ من يقابله في حسن عشرته، وسهولة معاملته، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما

قال لي أفًّا قط، ولا قال لي لشيء: لِمَ فعلت كذا وهلَّا فعلت كذا»[17]، كما كان أحلم النَّاس عند مقدرته، وأصبرهم على مكرهته متحلِّيًا بما وصفه به ربُّه حيث قال له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وكان يأتيه السَّائل ويشدِّد عليه في المسألة، فلا يزيده ذلك إلَّا حلمًا، ولا يخرجه الغضب أن يقول هُجرًا أو فحشًا، وكان يعلِّمهم أدب السُّؤال وينهاهم عن الخصام والجدال، والاشتغال بما لا يعني في الحال والمآل، فيقول خوفًا عليهم وشفقة بهم: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ»[18].

فلأجل هذا كلِّه، كان حقُّه ﷺ على أمَّته عظيمًا، وقدره بينهم كريمًا ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾ [الأحزاب: ٦]، فلا يُتَقَدَّم بين يديه، ولا يُتعجَّل بقضاء أمر قبل قضائه وحكمه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ [الحجرات: ١]، وقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧]، بل إنَّ طاعته واجبة حيث جاء الأمر بها في غير ما آية، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٣﴾ [محمد: ٣٣]، وقال أيضا: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾ [الحشر: ٧].

وإن مخالفته خطيئة جسيمة، وعاقبة صاحبها وخيمة، منذرة بالفتنة والعقاب، موجبة لأليم العذاب، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾ [النور: ٦٣].

وقد ضرب ﷺ مثلًا لذلك مع من أطاعه أو عصاه، فقال: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ، فَالنَّجَاء! فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجوا فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الحَقِّ»[19].

وكما هو حريص على أمَّته، رحيم بأصحابه، شفيع لأتباعه، فإنَّه شهيد عليهم عند ربِّه، وكانت



أمَّتُه ـ بطاعته ومتابعته ـ شهيدة على سائر الأمم، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٢]، وقال ﷺ: «يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٢][٢٠]، وفي الحديث بيان فضل النَّبيِّ ﷺ وفضل أمَّته؛ لأنَّ الله أنزلها منزل العدول من الحكَّام، فإذا حكم الله يوم القيامة بين العباد، وجحدت الأمم بتبليغ الرِّسالة بين الأشهاد، أحْضر أمَّة محمَّد ﷺ فيشهدون على النَّاس بأنَّ رسلهم بلَّغتهم، وهذا ممَّا اختصَّه الله به، واختصَّ أمَّته كذلك بفضائل وخصائص دون غيرها من الأمم.

وممَّا فضّل به ﷺ أنَّ الله تعالى يكتب لكلِّ نبيٍّ من الأنبياء من الأجر بقدر أعمال أمَّته وأحوالها وأقوالها، وأمَّته ﷺ شطر الجنَّة كما جاء في الخبر الصَّحيح.

فلهذه الفضائل وغيرها كانت هذه الأمَّة الطيِّبة المباركة ـ زادها الله عزًّا وشرفًا ـ خير أمَّة أخرجت للنَّاس كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وإنَّما كانوا خير الأمم لما اتَّصفوا به من المعارف والأحوال والأقوال والأعمال، فما من معرفة ولا حالة ولا عبادة ولا مقالة ممَّا يتقرَّب به إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ممَّا دلَّ عليه رسول الله ﷺ أو دعا إليه إلَّا وله أجر من عمل به إلى يوم القيامة، ولا يبلغ أحد من الأنبياء إلى هذه الرُّتبة.

وإنَّ فضل هذه الأمَّة إنَّما يبقى ويثبت بمدى قيامها على هديه وسنَّته، واستقامتها على نهجه وسيرته، وإنَّ حالها عند مفارقتها لما جاء به الرَّسول ﷺ كالحوت إذا فارق الماء.

فمن أعيته هذه النَّظرة اتجاه نبيِّه، فلا يغني عنه أن يَسمع سيرة أو يُردِّدَ مدْحًا أو يزعم حبًّا، فلننظر ما في نفوسنا من دينه، وماذا في أخلاقنا من أخلاقه،

وماذا في أيدينا من سيرته وسنَّته، وقد قال الله لنا: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فهذه ـ أيُّها القارئ اللَّبيب ـ جملة مختصرة عن سيرة النَّبيِّ الحبيب، وضعتها بين يديك؛ تذكيرًا منِّي إليك، عسى أن تنهض همَّتك لتزكية نفسك وإصلاح شأنك على هدى نبيِّك، ملتقى الأخلاق الفاضلة ومثال السماحة الكاملة.

---

(١) رواه الحاكم وهو في «السلسلة الصحيحة» للألباني رقم (٤٩٠).

(٢) رواه البخاري (٣٦٠٦، ٧٠٨٤)، ومسلم (؟؟؟).

(٣) رواه البخاري (٤٣٣٠) ومسلم (١٠٦١).

(٤) رواه البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥).

(٥) حديث حسن: خرجه الألباني في «مختصر الشمائل» (٢٩٥).

(٦) «مختصر الشمائل» للألباني رقم (٣٠٠) وهو بلفظ مقارب لما في «الصحيحين».

(٧) كما في خطبته عام حجة الوداع من حديث جابر وهو في «صحيح مسلم» برقم (١٢١٨).

(٨) رواه البخاري في «صحيحه» (٤٦١٢).

(٩) رواه البخاري (٦٨).

(١٠) البخاري (٣٣٠٣)، مسلم (٥٣٢٥).

(١١) «صحيح الجامع» (١٠٥٨).

(١٢) أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٨) وابن ماجة (٤٢)، انظر: «الصحيحة» (٩٣٧).

(١٣) مسلم في «صحيحه» (٨٧٠).

(١٤) حديث حسن: رواه أحمد (٥/١٥٣) رقم (٢١٣٩٩).

(١٥) رواه الطبراني في «الكبير» (١٦٤٧)، انظر: «الصحيحة» (١٨٠٣).

(١٦) رواه مسلم (٢٦٢).

(١٧) البخاري (٦٠٣١) ومسلم (٢٣٠٩) واللفظ له.

(١٨) رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

(١٩) البخاري (٧٢٨٣) ومسلم (٢٢٨٣).

(٢٠) البخاري (٤٤٨٧).

أهمية الوقت في حياة المسلم

نجيب جلواح

خلق الله تعالى الكونَ كلَّه في ستَّة أيَّام، لحكمة هو أعلم بها فقال ـ جلَّ شأنه ـ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [ق: ٣٨] ؛ وفي ذلك إشارة للإنسان وتعليمٌ له: بأنْ يوقِّت لكلِّ أمر، ويستفيدَ منه، ولا يضيِّع الزَّمن الَّذي يمرُّ مرَّ السَّحاب، ولِشَرف الوقت وأهميَّته: أقسم الله ـ سبحانه ـ في مطالع سُوَرٍ عديدة ببعض أجزائه، في عددٍ مِن آيات كتابه الكريم، فقال تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾﴾ [الفجر: ١، ٢] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [الليل: ١، ٢] وقال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ [الضحى: ١، ٢]، وقال أيضًا: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ [العصر: ١، ٢].

ولَمَّا كان العمرُ قصيرًا، والوقتُ ثمينًا أكَّد الله تعالى على قيمته ـ في القرآن الكريم ـ فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٢]، ولقد ذكر الله تعالى لنا حال المتَحسِّرين على تضييع أوقاتهم سُدًى، فقال ـ حاكيًا قول المفرِّطين يوم القيامة ـ: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾ [الفجر: ٢٤]، ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، فيجب على العاقل أن يتذكَّر الموت وساعة الاحتضار ـ حين يكون الإنسان في انقطاع مِن الدُّنيا، وإقبال على الآخرة ـ وعندها يتمنَّى لو مُنح مهلة من الزَّمن، ليصلح ما أفسد، ويتدارك ما فات، ولكن هيهات هيهات، فقد انتهى زمن العمل، وحان زمن الحساب والجزاء.

إنَّ المسلم الصَّادق هو الَّذي يُعِدُّ لكلِّ شيء عدَّته، ويحسب لكلِّ أمر حسابه، ويعلم ـ تمام

العلم ـ أنَّه مُحاسب على هذا الوقت، الَّذي يقضيه في دنياه ـ منذُ بلوغه وتكليفه ـ إلى أنْ يلقى ربَّه؛ فلا تمرُّ لحظةٌ من لحظات هذا الوقت إلَّا كانت له أو عليه؛ فعن ابن مسعود رضي الله عنه أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا ابْنِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ**»[1].

إنَّ أهمَّ ما يملكه العبد هو الوقت، فالعاقل هو الذي يحرص على أنْ يشغله فيما ينفعه ـ في الدُّنيا والآخرة ـ ولهذا جاء التَّنبيه عليه مِن النَّبيِّ ﷺ حيث قال: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ**»[2]، يُرشد الرَّسول ﷺ إلى أنَّ الفراغ مَغْنَم ومَكْسَب، ولكن لا يعرف قدر هذه الغنيمة إلَّا مَن عرف غايته في الوجود، وأحسن التَّعامل مع الوقت والاستفادة منه، ولعلَّ ممَّا يحفِّز على ضرورة الاستفادة مِن الوقت: حرص المسلم أنْ يكون مِن القلَّة ـ التي عناها الرَّسول ﷺ في هذا الحديث ـ إذْ ظاهره: أنَّ مَن يستفيد مِن الوقت هم القِلَّة مِن النَّاس، وإلَّا فالكثير مغبون وخاسر في هذه النِّعمة بسبب تفريطه في وقته، وعدم استغلاله الاستغلال الأمثل، وقد يكون الإنسان صحيحًا، ولا يكون متفرِّغًا: لانشغاله بمعاشه، وقد يكون مستغنيًا، ولا يكون صحيحًا؛ فإذا اجتمعا ـ أي: الصِّحَّة والفراغ ـ وغلب عليه الكسل عن طاعة الله: فهو المغبون، أمَّا إنْ وُفِّق إلى طاعة الله: فهو المغبوط[3].

ولقد برزت أهميَّة الوقت في حثِّ الرَّسول ﷺ على الاستفادة منه، وعدم تركه يضيع سُدًى، إذ قال ﷺ: «**اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَك قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ**»[4]، فحثَّ الإسلام على اغتنام فُرصة الفراغ ـ في الحياة ـ قبل ورود ما يُشغل مِن هرم، ومرض، وفقر؛ فالغالب أنَّ هذه الأمور تُلهي الإنسان، وتمنعه مِن الاستفادة مِن أوقاته، وتشغله عن استغلاله.

وممَّا يدلُّ على أهميَّة الوقت في حياة المسلم، واغتنامه فرصة للاستزادة مِن العلم النَّافع والعمل الصَّالح، والاستفادة منه حتَّى في أصعب المواقف وأحلك الأحوال: حديثُ أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ**»[5].

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: «وقت الإنسان:



هو عمره ـ في الحقيقة، وهو مادَّة حياته الأبديَّة في النَّعيم المقيم، ومادَّة معيشته الضَّنك في العذاب الأليم وهو يمرُّ مرَّ السَّحاب... فما كان مِن وقت لله وبالله فهو حياته وعمره، وغير ذلك ليس محسوبًا مِن حياته، وإنْ عاش فيه عيش البهائم، فإذا قطع وقته في الغفلة واللَّهو والأماني الباطلة، وكان خير ما قطعه به النَّوم والبطالة فموت هذا خيرٌ مِن حياته»[٦].

وقال الوزير الفقيه (يحي بن محمَّد بن هبيرة) ـ شيخ ابن الجوزي ـ:

والوَقْتُ أَنْفَسُ ما عُنِيتَ بِحِفْظِهِ
وأراه أَسْهَل مـا عليـك يَضِيـعُ[٧]

*** واجب المسلم نحو وقته:**

لما كان للوقت كلّ هذه الأهميَّة، حتَّى إنَّه لَيُعدُّ هو الحياة، كان على المسلم واجبات نحوه، ينبغي عليه أنْ يدركها، ومِن هذه الواجبات:

ـ الحرص على الاستفادة منه:

يتعيَّن على المسلم أنْ يكون حرصه على وقته أكثر من حرص النَّاس على أموالهم، وأن يبخل بوقته أكثر من بخل الأغنياء بثرواتهم، ولا يبدِّده فيما لا ينفع، بل يستغلُّه فيما ينفعه ـ في دينه ودنياه ـ وما يعود عليه بالخير والسَّعادة.

ـ تنظيم الوقت:

على المسلم أن ينظِّم وقته تنظيمًا مُحكمًا، بحيث يرتِّب بين الواجبات والأعمال المختلفة، سواء كانت دينيَّة أو دنيويَّة، على أنْ لا يطغى بعضها على بعض، ويقدِّم الأهمَّ على المهمِّ.

ـ اغتنام أوقات الفراغ:

الفراغ نعمةٌ، يغفل عنها كثير مِن النَّاس، فمن لم يستغلَّه فيما ينفع فما أدَّى شكر نعمة الله تعالى، ولا قدَّرها حقَّ قَدْرِهَا.

اعلم ـ أخي المسلم ـ أنَّ ما مضى مِن وقتك لا يعود ولن يرجع، ولا يمكن استبداله ولا تعويضه، فكلُّ يوم مضى، وكلُّ زمن انقضى ليس في الإمكان استعادته ؛ وهذا معنى ما قاله الحسن: «يا ابن آدم، إنَّما أنت أيَّام، إذا ذهب يوم ذهب بعضك».

وقال ابن القيِّم: «إضاعة الوقت: أشدُّ مِن الموت ؛ لأنَّ إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدَّار الآخرة، والموت يقطعك عن الدُّنيا وأهلها»[٨].

ها نحن على أبواب الإجازة ـ بما فيها مِن فراغ ـ لا يحسن الاستفادة منه إلَّا مَن وهبهم الله عقلًا راجحًا، يعرفون به كيف يستغلُّون أوقاتهم

فيما ينفعهم ولا يضرُّهم، ويفيد أمَّتهم ومجتمعهم، وذلك أنَّ المسلم إذا لم يستغلَّ وقته في الطَّاعة شغله الفراغ بالمعصية؛ فلابدَّ للعاقل أنْ يُشغل وقت فراغه بالخير، وإلَّا انقلبت نعمة الفراغ نقمة على صاحبها.

فمن تتبَّع أخبار النَّاس، وتأمَّل أحوالهم، وعرف كيف يقضون أوقات إجازاتهم، وكيف يمضون أعمارهم أدرك أنَّ أكثر الخلق مضيِّعون للأوقات الثَّمينة، محرومون من نعمة استغلال الفراغ فيما ينفعهم، في العاجلة والآجلة.

وإنَّ المرء ليعجب مِن فرح هؤلاء بمرور الأيَّام، وسرورهم بانقضائها، ناسين أنَّ كلَّ لحظة تمرُّ مِن عمرهم تقرِّبهم من القبر والدَّار الآخرة، وتباعدهم عن الدُّنيا ولذَّاتها.

وهذه بعض النَّصائح والتَّوجيهات حول كيفية الاستفادة من الإجازة:

١ ـ أنْ تستشعر قيمة الوقت، وتَعْلَم أنَّه رأس مالك؛ فإنْ ضيَّعته خسرتَ كلَّ شيء، وإنْ حافظت عليه فالنَّجاح حليفك.

٢ ـ أنْ تعلم أنَّ اغتنام الوقت لا يتطلَّب مالًا ولا ثروةً، إذ أنَّ مفاتيح استغلاله بيدك، فليس عليك سوى أن تشمِّر عن ساعد الجدِّ، وتبذل قُصارى جهدك في الاستفادة منه .

٣ ـ أنْ تعلم أنَّ بهذا الوقت حُفظت العلوم، وجُمعت السُّنَّة، وحُرِّرت المسائل، وكتبت المؤلَّفات؛ وأنَّه ما مِن عالم رُفع شأنه، وعلا صيته، وسمت مرتبته ؛ إلَّا وكان استغلال الوقت مركبه، واغتنام الفراغ همُّه.

٤ ـ احذر مِن صحبة مُضيِّعي الأوقات، فإنَّ مصاحبة الكُسالى، ومخالطة الخاملين مهدرة لطاقات الإنسان، ومضيعة لأوقاته.

بدأت الإجازة، وازدادت ساعات الفراغ ـ عند كثير مِن النَّاس ـ وأخذ بعضهم يطرح هذا السُّؤال: «**كيف نستفيد من إجازتنا؟**».

وإجابة لهؤلاء السَّائلين، وإرشادًا لكثرة الحائرين، نقول: إنَّ مجالات استثمار الإجازة كثيرة، وللمسلم أنْ يختار منها ما هو أنسب لحاله، وأصلح لدينه ودنياه ؛ ومِن هذه المجالات:

١ ـ حفظ كتاب الله تعالى وتعلُّمه: وقد حثَّ النَّبيُّ ﷺ على ذلك فقال: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»[٩].

٢ ـ اغتنام الوقت في طلب العلم وتحصيله، وله صور كثيرة، منها: المشاركة في الدَّورات العلميَّة، وحضور الدُّروس الَّتي تُلقى في المساجد،

ومتابعتها وتقييدها والاستفادة منها ؛ والاستماع إلى الأشرطة العلميَّة النَّافعة وقراءة الكتب المفيدة.

٣ ـ ذِكر الله تعالى؛ فليس في الأعمال شيء يسع الأوقات كلّها مثل الذِّكر، وهو مجال واسع خصب.

٤ ـ الإكثار مِن النَّوافل؛ وهو مجال مهمٌّ لاغتنام أوقات العمر ـ في طاعة الله ـ وعاملٌ مهمٌّ في تربية النَّفس وتزكيتها، وسبب لحصول محبَّة الله للعبد.

٥ ـ الدَّعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، والنَّصيحة للمسلمين.

٦ ـ زيارة الأقارب، وصِلة الأرحام.

*** آفات تقتل الوقت:**

هناك آفات وعوائق كثيرة تضيِّع على المسلم وقته، وتكاد تذهب بعمره كلِّه إذا لم يفطن لها، ويسعى للتَّخلُّص منها؛ فمن ذلك:

١ ـ الغفلة: وهي مَرض خطير، ابتلي به معظم النَّاس ، وقد حذَّر القرآن مِنها أشدَّ تحذير.

٢ ـ التَّسويف: وهو آفة تدمِّر الوقت، و تقتل العمر؛ فإيَّاك مِن التَّسويف، فإنَّك لا تضمن أن تعيش إلى غد، واعلم أنَّ لكل يوم عمله، ولكلِّ وقت واجباته.

نسأل الله تعالى أنْ يجعلنا ممَّن طالت أعمارهم، وحسنت أعمالهم، وأنْ يرزقنا حُسن الاستفادة مِن أوقاتنا، إنَّه ولي ذلك والقادر عليه.

---

(١) رواه التِّرمذي وأبو يعلى والطَّبراني في «الكبير» و«الصَّغير» وابن عديٍّ في «الكامل»، انظر: «السِّلسلة الصَّحيحة» (٩٤٦).

(٢) رواه البخاري عن ابن عبَّاس رضي الله عنه (٦٤١٢).

(٣) «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجر العسقلاني (١١/ ٢٣٤).

(٤) رواه الحاكم عن ابن عبَّاس وقال: «صحيح على شرطهما».

(٥) رواه أحمد والبخاري في «الأدب المفرد»

(٦) «الجواب الكافي» (ص٢١٢).

(٧) «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (١/ ٢٨١).

(٨) «الفوائد » (٢/ ٤٧).

(٩) رواه البخاري عن عثمان رضي الله عنه (٥٠٢٧).



فتاوى شرعية

د/ محمد علي فركوس

في حكم إعطاء الزَّكاة لمدِينٍ عاجزٍ في غيرِ معصية

= السؤال ======

وجد رجل شبابًا يسرقون محلاً تجاريًا، ولمَّا نهاهم هدَّدوه، وبعد مناوشات تشاجر مع أحدهم ودفاعًا عن نفسه قام بضربه، فقام هذا الأخير برفع دعوى قضائية ضدَّه مع شهادة زملائه المشاركين له في السرقة، وفي غياب دليل يبرِّئ ذمَّتَه حكمت عليه المحكمة بتعويض ماليٍّ قدره خمسون ألف دينار جزائري، وأمهلته مدَّةً، فإن لم يدفع القيمة المالية فسيتعرَّض للسِّجن وحالته المادِّيَّة غير ميسورة، فهل يجوز لي أن أعطيه من الزَّكاة؟ وبارك الله فيكم.

= الجواب ======

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على مَنْ أرسله اللهُ رحمةً للعالمين، وعلى آله وصَحْبِهِ وإخوانِه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فيجوزُ أن تعطى الزَّكاةُ للمدين العاجزِ عن الوفاء بديونه الَّتي لزمته من غير معصيةٍ، أو تحمّل الدَّيْن أو أُكرِهَ على تحمُّله وشقَّ عليه أداؤُه لدخوله في سهم الغارمين، في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة: ٦٠]، ولقوله ﷺ: «لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إِلَّا لِخَمْسَةٍ: لِلْعَامِلِ عَلَيْهَا، أَوْ رَجُلٍ اشْتَرَاهَا بِمَالِهِ، أَوْ غَارِمٍ، أَوْ غَازٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ مِسْكِينٍ تُصُدِّقَ عَلَيْهِ فَأَهْدَى مِنْهَا لِغَنِيٍّ»(١).

والعلمُ عند الله تعالى، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصَلَّى اللهُ على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وإخوانِه إلى يوم الدِّين، وسَلَّم تسليمًا.

استعمال الصحف والجرائد لأغراض وحاجات

= السؤال ======

ما حكم استعمالِ الجرائدِ والمجلاَّتِ والصُّحُفِ العربيةِ التي لا تحتوي على آياتٍ قرآنيَّة وأحاديثَ نبويَّةٍ، في تغليف السِّلع التِّجارية وغيرها؟ وهل الحكم هو نفسه بالنِّسبة للجرائدِ والمجلاَّتِ المكتوبة باللُّغات الإفرنجية؟ وبارك الله فيكم.

= الجواب ======

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على مَنْ أرسله اللهُ رحمةً للعالمين، وعلى آله وصَحْبِهِ وإخوانِه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فلا نستطيعُ أن نَنْفِيَ عن الصُّحف والجرائدِ والمجلاَّت العربيةِ خُلُوَّها من أسماءِ الله تعالى أو ذِكْرٍ تضمَّنَتْهُ بعضُ الآياتِ أو أطرافِ أحاديث، لذلك فالواجبُ الحيطةُ بالاحتفاظ بها وصيانَتها عن الابتذال، فلا يجوز اتِّخاذُها ملفَّاتٍ للحاجات من السِّلع الغذائية والخضر، أو تنظيفِ السَّيَّارات بها، أو مسحِ الزُّجاج بها أو طرحِها في الشَّوارع والأسواقِ أو إلقائِها في القُمامات ونحوِ ذلك، والأفضلُ إن فَرَغَ منها أن يَحْرِقَهَا أو أن يَدْفِنَهَا في مكانٍ طاهِرٍ أو يَعْزِلَهَا في مكانٍ خاصٍّ عن بقيَّة مُخَلَّفاته المَنْزِلية يصونها عن الامتهان.

أمَّا الجرائدُ والمجلاَّت المكتوبة باللُّغة الإفرنجية إذا تأكَّد خلوَّ صفحاتها ممَّا ينبغي أن يُصان ويُحفظ، فلا أعلم ممنوعيتَها في استعمالها لأغراض وحاجات.

والعلمُ عند الله تعالى، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصَلَّى اللهُ على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وإخوانِه إلى يوم الدِّين، وسَلَّم تسليمًا.

في حكم السُّؤال بوجه الله تعالى

= السؤال ======

ما حكم السُّؤال بوجه الله تعالى؟

= الجواب ======

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على من أرسله اللهُ رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فمن سأل أحدًا بالله أو بوجهه أجابه إلى سؤاله وإن لم يكن مستحقًّا لقوله ﷺ: «**مَنْ سَأَلَ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ**»[2]؛ لأنَّ في إعطائه تعظيمَ الله تعالى وتحقيقَ حاجة السَّائل ما لم يتضمَّن السُّؤال إثمًا أو قطيعة رحم، أو يحدث ضررًا للمسؤول أو يسأل أمرًا قبيحًا لا يليق شرعًا، كمن يسأل بالله مالًا ليبتاع محرَّمًا كالخمر والدُّخان وكل ما يعود عليه بالخُبْثِ والضَّرر؛ لأنَّ «التَّحريم يتبع الخبث والضَّرر»، لقوله ﷺ: «**مَلْعُونٌ مَنْ سَأَلَ بِوَجْهِ الله، وَمَلْعُونٌ مَنْ سُئِلَ بِوَجْهِ الله ثُمَّ مَنَعَ سَائِلَهُ مَا لَمْ يَسْأَلْ هُجْرًا**»[3].

والعلمُ عند الله تعالى، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين وصلى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين وسلَّم تسليمًا.

في حكم تناول مسافر لغذاء في مطاعم وقت صلاة الجمعة

= السؤال ======

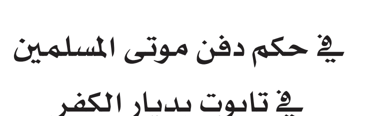
إذا كنا مسافرين يوم الجمعة، فإنَّنا نتوقَّف أحيانًا ببعض المطاعم التي على حافَّة الطَّريق، لتناول وجبة الغداء ممَّا يتزامن مع وقت إقامة صلاة الجمعة، والقائمون على هذه المطاعم لا يؤدُّونها، فهل يجوز لنا تناول الأكل عندهم؟ نرجو من فضيلتكم بيان الحكم الشَّرعي، وبارك الله فيكم.

= الجواب ======

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على مَنْ أرسله اللهُ رحمةً للعالمين، وعلى آله وصَحْبِهِ وإخوانِه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فاعلم أنَّ النَّهي عن البيع وقت النِّداء يوم الجمعة في قوله تعالى: ﴿**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٩**﴾ [الجمعة: ٩]، يشمل ـ عند الجمهور ـ سائرَ العقودِ، والمسافر ـ وإن لَمْ تجب عليه جمعةٌ لحديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قال: «**لَيْسَ عَلَى المُسَافِرِ جُمُعَةٌ**»[4] ـ إلَّا أنَّ وجوب السَّعي لها لمن تلزمه هو حقٌّ لله تعالى، والتَّعاقد المفضي إلى ترك هذا الحقِّ بطريق أو بآخر لا يجوز لكلَا الطَّرفين، أحدهما بالأصالة والآخر بالتَّعاون، لذلك ينبغي على المسافر ـ إن لم يَسْعَ إلى صلاة الجمعة ـ أن يتناول طعامه قبل النِّداء أو بعد صلاة الجمعة لئلَّا يعرِّض نفسه وغيرَه للإثم والمعصيةِ.

والعلمُ عند الله تعالى، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصَلَّى اللهُ على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وإخوانِه إلى يوم الدِّين، وسَلَّم تسليمًا.



في حكم دفن موتى المسلمين في تابوت بديار الكفر

= السؤال ======

تقدَّمت جمعيَّةٌ من الجالية الجزائرية بفرنسا، إلى الإدارة الفرنسيَّة المتمثِّلة في البلدية، بطلب منحهم قطعة أرض يتَّخذونها مقبرة، وقد قُبِل الطَّلب بشرط أن يتِمَّ بناء القبر بالإسمنت الصَّلب: قاعِه وجوانبِه الأربع، ويوضع الميِّت في صندوق ثمَّ يغلق عليه بقطعة من الإسمنت الصَّلب حتَّى سطح الأرض بدون رمي التُّربة فوقه بحجَّة أنَّ الأرض التي تُتَّخذ مقبرة معرَّضة للحركة والانجراف، فما حكم بناء القبر على هذا الشَّكل؟

وجزى الله الشَّيخ خير الجزاء وسدَّد خطاه ووفَّقه لما يحبُّه ويرضاه.

= الجواب ======

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على مَنْ أرسله اللهُ رحمةً للعالمين، وعلى آله وصَحْبِهِ وإخوانِه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فإذا مُنِحَتْ أرضٌ بديار الكفر لدفن موتى المسلمين خاصَّة دون سائر الملل؛ فإنَّه يجوز دفنهم فيها، إذِ المعلوم عدم جواز دفن كافر في مقبرة المسلمين ولا مسلم في مقبرة الكفَّار، أمَّا دفنه في تابوت اسْمَنْتِيٍّ أو خشبيٍّ يحول بينه وبين الأرض فإنَّه يكره ذلك اتِّفاقًا، قال النَّوويُّ: «هو مذهبنا ومذهب العلماء كافَّة وأظنُّه إجماعًا»[٥]؛ لأنَّ هذا الطَّريق في الدَّفن لا أصل له في شريعتنا، ولم يفعله الصَّحابة ﭬ بالنبيِّ ﷺ ولا بغيره من المسلمين، قال ابن قدامة في «المغني»: «ولا يستحبُّ الدَّفن في تابوت؛ لأنَّه لم ينقل عن النَّبيِّ ﷺ ولا أصحابه، وفيه تشبُّه بأهل الدُّنيا، والأرض أنشف لفضلاته»[٦].

هذا، غير أنَّ العلماء استثنوا من هذا الأصل ما إذا كانت الأرض رخوةً غيرَ متماسكةٍ لكثرة المياه أو الوَحل والطِّين، قال النَّوويُّ عن الشِّيرازي وسائر الأصحاب: «يُكره أن يُدفنَ الميِّتُ في تَابُوتٍ إلَّا إذا كانت رخوةً أو نديَّةً، قالوا: ولا تنفذ وصيَّته به إلَّا في مثل هذا الحال»[٧]، وهذا كلُّه فيما إذا لَمْ تُهَنْ أجسادُ موتى المسلمين في ديار الكفر بالإتلاف أو الإحراق ونحو ذلك إذا لم تدفع المبالغ المالية على وجه الاستحقاق للإدارة العمومية في ديار الكفر، فإنَّ احتمال وجود هذا الشَّرط يعرِّض موتى المسلمين للابتذال والإهانة ويمنع تجويز الدَّفن بتلك الأراضي ولو في مقبرة خاصَّة بالمسلمين، سدًّا لذريعة الإهانة والتَّحقير بأهل الإسلام، لقوله ﷺ:

«كَسْرُ عَظْمِ المُؤمِنِ مَيْتًا كَكَسْرِهِ حَيًّا»[٨].

والعلمُ عند الله تعالى، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصَلَّى اللهُ على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وإخوانِه إلى يوم الدِّين، وسَلَّم تسليمًا.

في مشروعية عموم الاشتراط في الحجِّ والعمرة

= السؤال ======

هل الاشتراط في الحجِّ والعمرة خاصٌّ بمن كان به مرض أو هو عامٌّ لكلٍّ من أراد الإحرام بهما أو بأحدهما؟

= الجواب ======

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على مَنْ أرسله اللهُ رحمةً للعالمين، وعلى آله وصَحْبِهِ وإخوانِه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فلا تتعلَّقُ مشروعيَّةُ اشتراطِ المُحْرِمِ على الله تعالى للتحلُّلِ من مناسكِ الحجِّ والعمرةِ بمن كان به مرض خاصَّةً، وإنَّما هو اشتراطٌ عامٌّ سواءٌ لِمَنْ لَمْ يكن به مرضٌ أو من تعلَّق به مرض، فيُشْرَعُ لِمَنْ لَبَّى مُحرِمًا أن يُقرِنَ تلبيتَهُ باشتراط التَّحلُّل من نُسُكِهِ متى حَبَسَهُ عارضٌ من مرضٍ أو خوفٍ عن إتمام نُسُكِهِ بقوله: «اللَّهُمَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي»، فإن حبس لعارض فليس في ذمَّته دَمٌ ولا حجٌّ من قابِلٍ[٩]، باستثناء حَجَّة الإسلام فلا تسقط عليه إجماعًا، ويلزمه قضاؤها.

هذا، وباشتراط التَّحلُّل بعذر، قال عمر بنُ الخطَّاب وعليٌّ وابن مسعود وغيرُهم وجماعة من التَّابعين، وبه قال أحمد وإسحاق وأبو ثور والشَّافعي في أصحِّ قوليه، وحُجَّتُهم ما ثبت صحيحًا من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رسولُ الله ﷺ على ضُباعةَ بنتِ الزُّبير، فقال لها: «**لَعَلَّكِ أَرَدْتِ الحَجَّ؟**» قالت: والله لاَ أَجِدُنِي إِلَّا وَجِعَة، فقال لها: «**حُجِّي وَاشْتَرِطِي، قُولِي: اللَّهُمَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي**»[١٠].

وهذا خلافًا لمذهب مالك وأبي حنيفة وبعضِ التَّابعين، فإنَّه لا يصحُّ الاشتراط مطلقًا عامًّا كان أو خاصًّا بمن به مرض، والحديث مخصوص ـ عندهم ـ بضُباعة بنت الزُّبير وأنَّ القصَّة قضيَّةُ عَيْنٍ لَا عُمُومَ لها.

والصَّحيح أصوليًّا أنَّ الخطاب الخاصَّ بواحد من الأمَّة يشمل المخاطَبَ وغيرَه حتَّى يقوم دليلُ التَّخصيصِ، لعموم الحُجَّة الرِّسالية الشَّاملة للنَّاس كافَّةً، ولعمل الصَّحابة رضي الله عنهم بقضايا الأعيان عمومًا، وفي هذه المسألة خصوصًا، ففيه دليل على



عدم التَّفريق في الأحكام الشَّرعية بين المخاطَبِ وغيرِه كما سبق بيان المسألة أصوليًّا[11].

والعلمُ عند الله تعالى، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصَلَّى اللهُ على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وإخوانِه إلى يوم الدِّين، وسَلَّم تسليمًا.

---

(١) أخرجه أبو داود في «الزَّكاة» باب من يجوز له أخذ الصدقة وهو غني (١٦٣٥)، ومالك في «الموطإ» (٦٠٤)، والحاكم في «المستدرك» (١٤٨٠)، وأحمد (١١٢٩٨)، والبيهقي في «السُّنن الكبرى» (١٣٤٤٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، والحديث صحَّحه الألباني في «الإرواء» (٨٧٠).

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٧٢)، والنسائي في الزكاة (٢٥٦٧)، وابن حبان (٣٤٠٨)، والحاكم (١٥٠٢)، وأحمد (٥٣٤٢)، والبيهقي (٧٩٨٢)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وصحَّحه النَّوويُّ في «الأذكار»: (٤٥٨)، وأحمد شاكر في «تحقيقه لمسند الإمام أحمد» (٧/ ١٩٥)، والألباني في «الإرواء» (٦/ ٦٠).

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٣٧٧) وفي «الدعاء» (١٩٩٣)، وابن عساكر (٨/ ٣٩٧/ ٢)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، والحديث حسَّنه العراقي في «طرح التَّثريب في شرح التَّقريب» (٤/ ٨٠)، والألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (٢٢٩٠)، وفي «صحيح الجامع» (٥٨٩٠).

(٤) أخرجه الدَّارقطني في «سننه» (١٥٥٩)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع»: (٥٤٠٥).

(٥) «المجموع» للنووي (٥/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨).

(٦) «المغني» لابن قدامة (٢/ ٥٠٣).

(٧) «المجموع» للنووي (٥/ ٢٨٧)، انظر: «مغني المحتاج» للشربيني (١/ ٣٦١).

(٨) أخرجه أبو داود في «الجنائز» (٣٢٠٧)، وابن ماجه في «الجنائز» (١٦١٦)، وأحمد (٦/ ٥٨)، والطَّحاوي في «مشكل الآثار» (٢/ ١٠٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها، وصحَّحه الألباني في «الإرواء» (٣/ ٢١٤) رقم (٧٦٣)، وحسَّنه الوَادِعِيُّ في «الصَّحيح المسند»: (١٥٩٧).

(٩) ويلزم لمن لم يشترط ـ إذا حبسه عارض من مرض أو خوف ـ دمٌ، لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، كما يلزمه حجٌّ من قابل.

(١٠) أخرجه البخاري في «النِّكاح» (٤٨٠١)، ومسلم في «الحج» (٢٩٠٢)، وابن حبان (٣٧٧٤)، وأحمد (٢٥١٣١)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(١١) انظر: الفتوى الموسومة بـ: «في العمل بقضايا الأعيان» تحت رقم (٤٥٤) على الموقع الرَّسمي للشَّيخ، حفظه الله تعالى: www.ferkous.com.

الشَّيخُ الطَّيِّبُ العُقْبِيُّ

«خطيب السلفيين وشاعرهم»

سمير سمراد

ـــ المولد والنشأة ـــ

يقول في ترجمته لنفسِه[1]: «وُلِدْتُ ببلدة سيدي عقبة (الجزائر) ليلةَ النِّصفِ من شهر شوَّال سنة (١٣٠٧هـ)؛ حسبما اسْتَفَدْتُه من مجموع القرائن الدَّالَّة على تعيين العام، ويُحتمل أنْ تكون وِلادتي بعد ذلك التَّاريخ بنحو العَامِ لأنِّي لم أجد قيدًا صحيحًا لسَنَةِ وِلادتي.

ووالدي هو محمَّد بن إبراهيم بن الحاج صالح»، وقد انتقل جدُّه الأوَّل إلى بلدة «سِيدي عُقْبَة»، فكان هُوَ وأولادُه مِنْ بَعْدِه «عُقْبِيِّينَ» بالسُّكْنَى.

ـــ الانتقال إلى الحجاز ـــ

يقول: «انتَقَلَت عائلتُنا مهاجرةً من بلدة «سيدي عُقْبَة» إلى الحجاز بِقَضِّهَا وقَضِيضِهَا؛ أُنْثَاهَا وذكرِها، صغيرِها وكبيرِها، سَنَة (١٣١٣هـ)، قاصدةً مكَّة المكرَّمة لحجِّ الكعبة المشرَّفَة في تلك السَّنةِ، فكنت في أفرادها الصِّغار، لم أبلغْ منَ التَّمْييز الصَّحيح، ولولا رجوعي إلى هذه البلاد ما كنت لأعرف شيئًا فيها».

ـــ اسْتِقْرارُ عائلتِه بالمدينة ـــ

يقول: «سَكَنَتْ عائلتُنا أوَّل سَنَة (١٣١٤ هـ) ـ بعد الحجِّ ـ المدينةَ المنوَّرةَ، حيث كان استقرارُها بها، وبها قبرُ أَبَوَيَّ وعمِّي وعمِّ والدي وأختي، وَجُلِّ من هاجر من أفراد عائلتِنا، كلُّهم دُفِنُوا هُنَالِكُمْ بـ «بقيع الغرقد»، رحمةُ الله عليهم».

ـــ كَفَالَته وتَرْبِيَته ـــ

ويقول: «وبعد وفاةِ والدِي (سنَة ١٣٢٠هـ) بَقِيتُ مع شقِيقِي وأختِي للأبِ تحت كَفَالة والدتي... وتربَّيْتُ في حجر أمِّي يتيمًا غريبًا لا يَحُوطُنِي ولا يَكْفُلُنِي غَير امرأةٍ ليست بعالمة... ولولا فضل الله عليَّ



وعنايتُه بي صغيرًا يتيمًا لما كنت هُدِيتُ سواء السَّبيل».

ـــ تعلُّمه وقراءَته القرآنَ ـــ

يقول: «قَرَأْتُ القرآنَ على أساتذة مِصْرِيِّين برواية «حفص»، ثُمَّ شَرَعْتُ على عهدِ والدتي بقراءةِ العلم بالحَرَمِ النَّبويِّ، لا يشغلني عنه شاغلٌ ولا يصدُّني عنه شيء، حيث كان أخي الأصغر منِّي سِنًّا هو الَّذي تكلَّفه والدتي بقضاء ما يَلْزَمُ من الضَّروريَّات المنزليَّة، وقد أدركتُ سِرَّ الانقطاع لطلب العلم وفَهِمْتُ جيِّدًا قولَ الإمام الشَّافعيِّ: «لو كُلِّفْتُ بشراء بَصْلَةٍ، ما تَعَلَّمْتُ مَسْأَلَةً»، بعد أن أصْبَحْتُ أنا قائمًا بشؤوني والمتولِّي أمرَ عائلتي ونفسي، وأخذت إذْ ذاك من العلم بِقِسْطٍ شَعَرْتُ معه بواجباتي الدِّينية والدُّنيويَّة، وما كِدْتُ أُدْرِك معنى الحياة وأتناولُ الكتابةَ في الصُّحف السيَّارة وأنظم الشِّعر وأتمكَّن من فهم فنِّ الأدب الَّذي كان سَمِيرَ طَبْعِي، وضميرَ جمعي ـ حتَّى فاجَأَتْنَا حوادثُ الدَّهر، ونَوائبُ الحدثان، وجلُّها كان على إثْرِ وبسبب الحرب العالمية التي شتَّتَتِ الشَّمل وفرَّقت الجمع».

ـــ كَيْفَ أبْعِدَ من المدينة ـــ

يقول: «تَنَاوَلْتُ الكتابةَ في الصُّحفِ الشَّرقيَّة قبل الحرب العموميَّة أمدًا غير طويلٍ، فَعَدَّنِي بعضُ رجالِ تركيا الفتاة من جملة السِّياسيِّين، وأخرجوني في جملة أنصار النَّهضة العربية من المدينة المنوَّرة ـ على إثر قيام الشَّريف حسين بن علي في وجوههم بعد الحرب ـ إلى المنْفَى».

وكان مستقرُّ المنْفَى أخيرًا في أرض «الأَنَاضُولِ».

ثمَّ يقول: «وهناك بَقِيتُ أكثرَ من سنتَيْن مُبْعَدًا في جملة الرِّفاق عن أرض الحجاز وكلِّ بلاد العرب، ثمَّ انتهت الحربُ الكبرى بعد الهدْنَةِ يوم (١١ نوفمبر ١٩١٨م) ونحن إذْ ذاك مع عائلتنا الَّتي التحقت بنا بعد خراب المدينة «أزمير»، ومنها كان رجوعنا معشر أهالي المدينة المنوَّرة إلى الحجاز.

وما وصلت أنا إلى مكَّةَ المكرَّمةِ حتَّى لَقِينَا من لَدُنِ جَلَالَةِ الملك حُسَيْن كلَّ ما هو أهله من الإكرام والإجلال، وهناك عيِّنْتُ مديرًا لجريدة «القِبْلَة» و«المطبعة الأمِيريَّة»...».

ـــ رجوعُه إلى الجزائر ـــ

وقد وقف الدُّكتور صالح خرفي[٢] على نقلٍ مهمٍّ يؤرِّخ لهذه المرحلة في جريدة «القبلة» [السَّنة الرَّابعة، العدد ٣٤/ ٥ يناير ١٩١٩م]، وها هو بنصِّه:

«(سفر فاضل) في مساء هذا اليوم برح العاصمة رصيفُنا الفاضلُ الهُمامُ، أَرَبُ الغَيْرَةِ والشَّهامةِ، الكاتبُ القدير، والشَّاعر الكبير، الأستاذ «الطيِّب العقبي» قاصدًا «جُدَّة» بعائلته، ومنها إلى

وطنه الأصلي «الجزائر»، الَّتي وضع بعضُ المعتدين المتمرِّدين يَدَهُ عليها اغتصابًا، وامتصَّ في سِنِيِّ الحربِ العموميَّة، التي نال رصيفُنا الفاضل منها ما ناله من أنواع العسف والجور والنَّفي والتَّبعيد من الحكومة التركيَّة ظلمًا وعدوانًا شأن الأفاضل الأحرار... نكتب هذه السُّطور ونحن في أشدِّ الأسف والأسى على فراق رصيفِنا الماجد النَّبيل ونتمنَّى له النَّجاح في قضيَّته، رافقتْه السَّلامة في الظَّعن والإقامة».

وقد ذكر العقبي سببًا آخر لرجوعه إلى وطنه، قال: «... ولما كُنْتُ أتوقَّعُه من عدم اسْتِتْبَابِ الأمْنِ واستقرارِ الأمرِ في الحجاز للشَّريف حسين، غَادَرْتُ تلك البلاد المقدَّسة إلى هذه البلاد الجزائرية بنيَّة قضاء مآربي هنا وعمل ما يجب عملُه في قضيَّة أملاكِنا مع المعْتَدِي عليها، ثمَّ الرُّجوع إلى الحجاز إذا رَجعَتِ المياهُ إلى مجاريها».

لكن شاء الله أن يبقَى العقبي، ولا يغادر الجزائر، ويستوطن بلدة «بَسَّكْرَة».

وعلى إثْرِ عودته، قامت حكومةُ فرنسا بتفتيش منازله ببلدة «سيدي عُقبة» و«بسكرة»، بسبب وِشَايَات الظَّلمةِ المعتَدِين، وأخذت جميعَ أوراقِه الَّتي كانت بحوزته؛ من مخطوطات وغيرها، يوم (٤ سبتمبر ١٩٢١م)، وأطلقت سبيلَه بعد توقِيفِه أربعة أيَّام، ولم يزلِ الشَّيخ يطلبها منهم (مِرَارًا لما بها من القضايا) التي تخصُّه (أو المسائل العلمية)[٣].

ثمَّ أسَّس الشَّيخ ابن باديس صحيفة «المنتقد»، واجتمع عليها الكتَّاب المصلحون، فسلُّوا سيف الانتقاد، بعد أن عَلِمُوا أنَّه «لا يكون إصلاحٌ إلَّا بالانتقاد»، وقد كانت وجهتهم الأولى في النَّقد هي الاعتقادات.

يقول ابن باديس: «هنا اصطدمنا بزعماء الطُّرق وشيوخ الزَّوايا الاصطدامَ المعروف؛ لأنَّه إذا خلص التَّوحيدُ توجَّه النَّاس إلى ربِّهم الَّذي خلقهم وتَرَكُوهُم، واعتقدوا فيهم أنَّهم مخلوقون مثلهم لا يضرُّون ولا ينفعون، إلى غير هذا ممَّا يُنْتِجُه التَّوحيد الصَّحيح من تحرير العقول والأرواح والقلوب والأبدان»[٤]، فَزَعْزَعُوا «عقائدَ كانت تُحْسَبُ من صميم الإيمانِ»، ونَسَفُوا «صُرُوحًا مشيَّدة من الخرافات والأوهام»، وزَرَعُوا «البَذْرَةَ الأولى لتطهِير العقائد وتحرير الأفكار».

وكانت أوَّلُ صحيفة دعت إلى تحرير الأمَّة من ضغط وتسلُّط زعماء الطرقيَّة، أو «حكومة القطب والغوث»، هي صحيفة «المنتقد»، التي انْبَرَت للكتابة فيها: «أقلام كانت تُرسل شُوَاظًا من نارٍ على الباطل والمبْطِلين»[٥].

ثمَّ جاءت قصيدةُ العقبي، كالسَّيلِ الجارف،

أو كالزِّلزال؛ بما أحدثته من هزَّة عنيفة، وتحطيمٍ لأوضاع مقدَّسة، يحدِّثنا عنها الشَّيخ مبارك؛ يقول: «ابْتِدَاءُ الحربِ على حكومة القُطْبِ:... قصيدة العقبي وتأثيرها في الأمَّة؛ ولكن «أتى الوادي فطم على القرى» إذ حمل العدد الثامن [من «المنتقد»] في نحره المُشْرِقِ قصيد «إلى الدِّين الخالص» للأخ في الله، داعية الإصلاح وخطيب المصلحين، الشَّيخ الطيِّب العقبي... فكانت تلك القصيدة أوَّل مِعْوَل مؤثِّر في هيكل المقدسات الطرقيَّة، ولا يعلم مبلغ ما تحمله هذه القصيدة من الجراءة ومبلغ ما حدث عنها من انفعال الطرقيَّة، إلَّا من عرف العصر الَّذي نشرت فيه وحالته من الجمود والتَّقديس لكلِّ خرافة في الوجود»[٦] ممَّا جاء فيها:

ماتت السُّنَّة في هـذي البـلاد
قُبِر العلم وسـاد الجهـل ساد
وفـشـا داء اعتقـاد بـاطـل
في سهول القُطر طُرًّا والنَّجاد
عـبـد الكلُّ هـواء شـيــخـه
جـده، ضـلّوا وضلّ الاعتقاد

ثمَّ عُطِّلت «المنتقد» فَخَلَفَتْهَا «الشِّهاب» «مرآة الإصلاح والمصلحين»، لتمضِيَ على نفسِ الخطَّة، وتواصل الجهاد، وكان «العقبي» من محرِّري المقالات العظيمة بها، كما كان عميدَ الكتَّابِ فيها، ولك أن تَلْتَمِسَ ذلك لمس اليدِ، إذَا وقفت على هذه الكلمات والتَّصديرات التي كان يُحَرِّرُهَا ويُثْبِتُهَا صاحب «الشِّهاب»، وإليك بعضها:

ـــ مباهلة العقبي للطرقيين ـــ

وبينما الحرب على أشدِّها بين الموحِّدين وبين الطُّرقيِّين الخرافيِّين، والصِّراع في أَوْجِه، إذا بخُرَافِيٍّ كبير من المغرب الأقصى يَنْضَمُّ إلى أصحابه «العلِيويِّين»، ويسخِّرُ نَثْرَه وشعرَه في هَجْوِ مُنْتَقِدِي البِدَعِ ومحاربي التَّخريف، وهو: «أحمد سُكَيْرِج» القاضي التِّيجَانِي، وكان من شأنه أنَّه دعا المصلحين للمباهلة، بل كَذَبَ عليهم وادَّعى أنَّهم لا يجيبون إذا دُعُوا إليها، فتصدَّى له «العقبي»؛ وكتب: «بل نجيب... ولعنة الله على الكاذبين»[٧].

وقال العقبي في «مباهلته»: «اللَّهمَّ إنْ كنت تعلم أنَّ سُكَيْرِج وجماعة الطُّرقيِّين فيما هم عليه اليوم وما يدعون النَّاس إليه ويقرُّونهم على فعله في طرقهم مُحِقُّون وأنَّ ذلك هو دينك الَّذي ارتضيته وشرعته لعبادك بواسطة محمَّد ﷺ، فالْعَنِّي ومن معي لَعْنًا كثيرا! وإن كنت ـ يا اللهُ، يا ربَّنَا وربَّ كلِّ شيء!! ـ تعلم أنَّ ما عليه الطُّرقيُّون اليوم فيما هم فيه من

أمرهم ودعايتهم النَّاس إلى طُرُقِهم هو من الحَدَثِ في دينك والباطل الذي لا يرضيك ولا يرضي نبيَّك، فالْعَنْ (سكيرج) قاضي الجديدة ومن معه لَعْنًا كبيرا! واجعل مَقْتَكَ الأَبَدِيَّ وخِزْيَك ولَعْنَتَك الدَّائمة على الكاذبين! (آمين، آمين، آمين).

هكذا أُبَاهِلُك وأُلَاعِنُك يا سكيرج! فلاعِنِّي بمثلِها! وإيَّاك أن تتأخَّر أو تنهزم يوم اللِّقاء...»، «سكت سكيرج ولم يجب عن مقال العقبي «ببنت شفة»، وكان من واجبه أن يجيب بصراحة ويقول أنِّي قَبِلْتُ تعيين الزَّمان والمكان»، وهكذا: «انهزم سكيرج»؛ ولكن أصحابه عمدوا إلى التَّمويه والمغالطة والكذب فأعرض العقبي عنهم، وقطع الكلام معهم؛ لأنَّهم كما قال: «هم قَوْمٌ بُهْتٌ» [ع١١٢/ ص٨ ـ ١٤].

ــ تأييد ابنِ باديس والمِيلي ــ

«سَيُهْزَمُ الجمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ»: تحت هذا العنوان كتب ابن باديس تأييدًا للعقبي، قال: «حيَّاك الله وأيَّدك يا سيف السنَّة وعَلَمَ الموحِّدين، وجزاك الله أحسن الجزاء عن نفسك وعن دينك وعن إخوانك السَّلفيِّين المصلحين، ها نحن كلُّنا معك في موقفك صفًّا واحدًا ندعو دعوتك ونباهل مباهلتك، ونؤازرك لله، وبالله.

فليتقدَّم إلينا الحُلُولِيُّونَ[٨] وشيخُهم ومن لَفَّ لَفَّهُم وكَثَّرَ سَوَادَهُم في اليوم الموعود والمكانِ المعيَّن لهم، ولِيُبَادِرُوا بإعلان ذلك في جريدتهم إن كانوا صادقين، فإن لم يفعلوا ـ وأَحْسَبُ أن لن يفعلوا ـ فقد حقَّت عليهم كلمةُ العذاب وكانوا من الظَّالمين، والحمد لله ربِّ العالمين»[٩].

كما كتب الشَّيخ مبارك الميلي في العدد الموالي للشَّيْخَيْنِ [في العدد: ٩٨/ ص١٠ ـ ١٣]، جاء فيه وصف الشَّيخ العقبي بـ: «خطيب السلفيِّين وكاتبهم وشاعرهم».

ــ العُقْبِي وجريدةُ «الإصلاح» ــ

ثمَّ أسَّس العقبي جريدة «الإصلاح» ببسكرة، التي يقول عنها الإبراهيمي: «فكان اسمُها أخفَّ وقعًا، وإن كانت مقالاتُها أسدَّ مَرْمَى وأشدَّ لَذْعًا»[١٠]، وكتب عنها الشَّيخ ابن باديس، وبشَّر بِقُرْبِ صدورِها؛ فقال: «سَتَصْدُرُ تحت الاسم أعلاه جريدةٌ لخطيب السَّلفيِّين وشاعرِهم الزَّعيم الكبير الشَّيخ الطيِّب العقبي، بحسبي في التَّنويه بما ستجمِّل به «الإصلاح» الصَّحافة الجزائرية من آيات البيان، وغُرَرِ البلاغة، وفنون الكلام، وبديعِ الأساليب، وما تخدم به حزب الإصلاح الدِّيني من

آيات الحكمة وقواطع الحجَّة في أبواب الدَّعوة ومطارح الجدل، بحسبي في ذلك أن أقول إنَّها للأستاذ العقبيِّ، فقد عرفه النَّاس في مجالسه وما نشرته الصُّحف من كلامه، الخطيب المُفَوَّه، والكاتب الضَّلِيع...»[11].

وقال فيه أيضًا: «الأستاذ العقبي أشهر مِنْ أنْ نُعَرِّفَ به، ونتحدَّث عن ثباته وإخلاصه وصراحته وجراءَتِه، ولقد كان منذ أيَّام الحجاز وحلَّ ببلدة «سيدي عقبة» مُعْلِنًا بكلمة الحقِّ، داعيًا إلى الكتاب والسُّنَّة، مُنْكِرًا لشرك القبوريِّين، وبدع الطرقيِّين، وكان له من جرَّاء ذلك أعداء، وكان له بسببه خصومٌ، وكانت له معهم مواقفُ وكانت له عليهم ردود... »[12].

ولقد عانى العقبي كثيرًا لاسْتِصْدَارِ جريدته، واعْتَرَضَتْهُ فيها عراقيلُ؛ ولا أدلُّ على ذلك من أنَّ العدد الأوَّل صدر في (١٢ ربيع الأوَّل ١٣٤٦هـ)، ولم يصدر العدد الثَّاني إلَّا في أوَّل سَنَتِهِ الثَّالثة (٢ ربيع الثاني ١٣٤٨هـ)، موافق: (٥ سبتمبر ١٩٢٩م).

لم يمضِ على العقبي إلَّا زمن قصير في بسكرة حتَّى طار صِيتُه، حيث كان في هذه المرحلة: «العالم الأوَّل، والمصلح الدَّاعية الأوَّل»، الَّذي قوَّض صرح الطُّرقيَّة، وزعزع بنيانها، وأعمل فيها فؤوس الهدم، ليثبِّت مكانها عقائد التَّوحيد الصَّحيحة.

ـــ جهادُ العُقْبِي ـــ

كان هذا جهاد العقبي في «الكتابة» التي كان إمامًا مُبَرَّزًا فيها، وهنا وقفة مع جهاده في الميدان، ومع دعوته الَّتي أعلن بها في وسط النَّاس:

* هذه مكاتبة نُشِرَتْ لأديب في جرائد تونس [جريدة «لسان الشَّعب» (١٩٢٧)]، قام برحلة إلى «بسكرة»؛ فسجَّل ما يلي: «...في بسكرة جماعة إصلاحية قويَّة على رأسها الأستاذ الطيِّب العقبي... وأهمُّ ما ترمي إليه هَاتِهِ الجمعية القضاءُ على الخرافات القديمة، والتَّنقيصُ ممَّا يعلمه النَّاس عن الطُّرق والزَّوايا للقضاء عليها بعد ذلك بتاتًا، وهو أمر تعهَّد به العقبي الَّذي لا يترك فرصةً تمرُّ بدون أن يكون فيها خطيبًا لا فرق عنده أكان ذلك في طريق، أو مقهى، أو حانوت عطار... وقد اشتهر الأستاذ بفكرتِه، وهو فخور بها يسمع النَّاس يسبُّونه ولا يتحرَّك، ويأتيه البريد بالمكاتيب [أي: الرَّسائل] المملوءة بشَتْمِه فيضحك منها ويعطيها لمن كان بجانبه ويقول: «انظر في أيِّ شيء يضيِّعون أوقاتهم»، وله في طريق داره ضريحٌ صغير في مقبرة قديمة رأى النَّاس يعبدونه، فهدمه ثلاث مرَّات،

ولكنَّهم في كلِّ مرَّة يجدِّدون بناءه بعد أن يزوِّدوا الأستاذ بجانبٍ من الدُّعاء، وأخيرًا تركوه وصمَّموا على عدم تجديده إلَّا إذا انْتَقَمَ لنفسه من عدوِّه!... وهم منتظرون!

ولقد التفَّ حول هذا الرَّجلِ المصلح نخبةٌ مهمَّةٌ من أبناء البلاد، كوَّنوا نهضةً لا يُسْتَهَانُ بها، وهي تعمل بكلِّ مجهودها في إنارة الطريق إلى الأفكار القديمة الَّتي اسْتَوْلَتْ عليها وأفسدَتْها من حيث لا تَشْعُرُ»[١٣].

وكتب «الزَّاهري» عن إحدى جَوَلات العقبي رُفْقَةَ إخوانه من العلماء والأدباء في منطقة «بسكرة»؛ فقال: «وَفْدُ الشُّعراء يزور: طُولْقَة، فرفار، البُرْج» [«جريدة البرق» (ماي ١٩٢٧م)]: «وبعد الفراغ من مَأْدُبَةِ الغَدَاءِ، شرع الأستاذ الطيِّب العقبي يدعو النَّاس إلى النَّجاة، ويهديهم إلى سبيل الرَّشاد ويجاهد الَّذين يجعلون لله أندادًا، ويدعون مع الله آلهةً كثيرةً ـ بالقرآن جهادًا كبيرًا، ومضى العقبي في هذا الموضوع وتغلغل فيه بشدَّة كأنَّه التيَّار الجارف الذي جرف طرق «القومِ» وخرافاتهم؛ أو كأنَّه إعصار فيه نارٌ تأكل ضلالات المشركين أَكْلًا لَـمًّا؛ فلم يَبْقَ في مجلسه ذلك أحدٌ إلَّا وخضع لكتاب الله، وسلَّم لله ورسوله تسليمًا ولم يخرجوا من هناك حتَّى عادوا لا يجدون في أنفسهم حرجًا مما قضى اللهُ ورسولُه...».

وقال عن مجلس آخر، جمعهم بالشَّيخ السّعدوني الَّذي قال قولًا عظيمًا شنيعًا؛ «ولم يتكلَّم الشَّيخ السّعدوني... وجعلنا نتباحث معه في حركة الإصلاح وفي المصلحين، وفي أعداء الإصلاح المفسدين فاعترف بأنَّه قال: «الرُّجوع إلى كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ ضلالٌ مبينٌ؛ وشقاوة وخسارة سَرْمَدِيَّة، اليوم وقبل اليوم»، وقال: إنَّه لا يزال مصرًّا على هذا القول،... وقد بيَّن لنا مراده بتأويلٍ لم نستطع أن نفهمه، وقد هجم عليه العقبي هجوم المحقِّ على الباطل فتركه حائرًا مبهتًا، وكان هذا الموقف الذي وقفه الأستاذ العقبي موقفَ جدٍّ، موقفَ صراحة، موقفَ من لا يخافُ في الله لَوْمَةَ لائِمٍ، موقفَ من يجاهد الخرافيِّين بالقرآن جهادًا كبيرًا، بتلك الفصاحة العربيَّة الَّتي لم تكن لغير العقبي، فإنَّه أحاط بالسَّعْدُونِي من كلِّ جانب يحتجُّ بالقرآن، ولم يكن للسَّعدوني من حجَّة... وأخيرًا عَجَزَ عن كلِّ شيء واعترف بأنَّه لا يستطيع أن ينتصر علينا بلسانه؛ ولكنَّه سيكتب في الجرائد... وقد قرَّعه العقبي على طعنه في ابن تيمية... تقريعًا حُلْوًا وَمُرًّا...».

ـــ فَصَاحَةُ العُقْبِي ـــ

ولا يفوتني هنا أنْ أقف وَقْفَتَيْنِ مع «فصاحة» العقبي، الَّتي أجمع على التَّنويه بها الموافق والمخالف:

* قال أحد كتَّاب جريدة «النَّجاح»(١٤) [ع: ٢٨٠/ ص٢] (عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م):

«أمَّا الشَّيخ الطَّيِّب العقبي فله فصاحةٌ تامَّةٌ يتخلَّص بها من موضوع إلى موضوع بسهولة ولم يَتَلَعْثَمْ في خطابه، وذاك دليل على براعته في المنطق».

* وقال أحد مكاتبي «الشِّهاب» [ع:١٦١/ ص٦ ـ ٩] يصف إحدى مجالس وجولات العقبي [١٩٢٨م]: «ثُمَّ قام أميرُ البيان والخطيبُ المصقع الأستاذ العقبي، وألقى خطبةً ارتجالًا دامت أكثر من نصف ساعة... ولقد رأيته خطيبًا بلسانه، خطيبًا بلهجته، خطيبًا بهيئته، خطيبًا بحركاته وسكناته، وأسهب في ذلك [الموضوع] إسهابًا استحلاه النَّاس واستعذبوه، حتَّى مَلَكَ عليهم عواطفَهم وأخذ عليهم مشاعرَهم وترك بعض النَّاس يبكون من شدَّة ما أثَّر عليهم بفصاحته وبيانه...».

ـــ الانتقال إلى عاصمة الجزائر ـــ

استدعى الأعيان المصلحون في مدينة الجزائر وإدارة «نادي التَّرَقِّي» الشَّيخ العقبي ليواصل جهاده في الجزائر الَّتي هي في حاجة أكثر إليه، ورَغِبَتْ في ذلك إدارةُ جمعية العلماء، فانتقل إليها.

وعن عظيم أثره فيها، يقول الشَّاعر الأديب حمزة بوكوشة(١٥): «...ظهرت العاصمة بمظهر ديني لم يُعهد فيها من قبل، [حدث بها انقلاب لم يكن في الحسبان] وذلك منذ حلَّ بها الدَّاعية الإسلامي العظيم الأستاذ الطيِّب العقبي، فأثَّر في الأمَّة بدروسه... ومحاضراته... فانتفع به خلقٌ كثيرٌ في العاصمة وضواحيها، واتَّبعوا الصَّلاة، وتركوا الشَّهوات»(١٦).

وقد كان العقبي عميد «جمعية العلماء» في العاصمة، ولسانُها الَّذي يَنْشُر دعوتَها، وحين تأسَّست جريدة «البصائر» عَهِدَتْ إليه بإدارتها.

ـــ مِحْنَةُ العُقْبِي ـــ

ثمَّ حدثت حوادثُ مؤلِمةٌ، ابتدأت بمكيدةِ اتِّهام العقبي بقتل المفتي «كَحُّول»، ومثولِه للمحاكمة، ثمَّ بعد براءتِه، بقي تحت نَظَرِ الحكومة واختبارها، في محنة شديدة مرَّت عليه، ثمَّ استعفاؤُه من إدارة «البصائر»، ثمَّ مأساة استقالته من مجلس إدارة جمعية العلماء، وهكذا انفصل العقبي عن بقيَّة إخوانه، وجاءت الحرب العالميَّة...

وقيل الكثيرُ عن العقبي، ممَّا يطول ذكره، إلَّا أنَّه لابدَّ من الإشارة إلى أنَّ تلك الأقوال التي غُمِزَ بها، يَرْجِعُ أكثرُها إلى مواقفِه السِّياسيَّة، وإلى الخطّة الَّتي اختارها في المعاملة مع الإدارة الفرنسيَّة؛ يريد بذلك خدمة هذه الأمَّة، وتجنيبها ما يضرُّ بها، أمَّا دينه وعقيدته فلا أحد استطاع أن يشهد عليه بأنَّه بدَّل أو غيَّر، بل هم مجمعون على أنَّه ظلَّ ثابتًا صلبًا فيهما، ومن آخر ما كتب عام (١٩٥٣م) قوله: «إنَّني بلوت هذه الأمَّة في خدمتي لها أكثر من ثلاثين سنة، وقاسيت في سبيل الإصلاح ما قاسيت وكانت التَّجْرِبَة قاسية كادت تؤدِّي إلى اليأس من نجاة هذه الأمَّة المَغْبُونَة؛ ولكن اعتقادي في إصلاح حالها لا يزال اليوم على ما كان عليه أمس، وهو أنَّ نجاة هذه الأمَّة لا يحصل إلَّا في التَّمسُّك بالكتاب والسُّنَّة والسَّير على ضوء تعاليمها قولًا وعملًا...»[17].

رحم الله الشَّيخ العقبي، وجازاه أحسن ما يجازي المجاهدين العاملين.

---

(١) نشرت في كتاب «شعراء الجزائر في العصر الحاضر» للأديب الهادي السّنوسي (ص١٢٤)، ونقلها الأستاذ فضلاء في كتابه: «الطيِّب العقبي رائدًا لحركة الإصلاح...» (ص١٥ ـ ٢٣)، وعن هذا الأخير نَقَلْتُ.

(٢) «الجزائر والأصالة الثَّوريَّة» (ص٨٢).

(٣) انظر: «الشِّهاب» [العدد ٥، والعدد ٧].

(٤) «الشِّهاب» [العدد ٣٢/ ١١ ذي الحجة ١٣٤٤هـ].

(٥) الإبراهيمي: «سجل مؤتمر جمعية العلماء» (ص٥١).

(٦) «رسالة الشِّرك» (ص٢٨٤).

(٧) «الشِّهاب» [عدد ٩٧ السنة الثانية: ١٧/ ١١/ ١٣٤٥هـ].

(٨) «الحلوليون» نسبةً إلى عقيدة الحُلُولِ التي حَوَتْهَا كتبُ ابن علِيوَة؛ رئيس «العلِيوِيِّين»، فقد زعم أنَّه هو «الله»! تعالى الله عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا.

(٩) «الشِّهاب»: [السَّنة الثَّانية: ١٧/ ١٢/ ١٣٤٥هـ/ ص٧].

(١٠) «السِّجل» (ص١٥).

(١١) «الشِّهاب»: [العدد ١٠٦/ جوليت ١٩٢٧م/ ص١٥].

(١٢) «الشِّهاب»: [العدد ١١٥ / ص١٧].

(١٣) «رحلات جزائريَّة» (ص٨٤ ـ ٨٥) لمحمَّد الجابري.

(١٤) انتهجت هذه الجريدة نهجًا مضادًّا للمصلحين، وآوت كتَّاب الطُّرقيِّين.

(١٥) كان عضوًا إداريًّا في جمعية العلماء، وكانت له صلة بالشَّيخ العقبي، وقد حدَّثني ولده أنَّ في مخطوطات والده كتابًا ألَّفه عن سيرة العقبي، فعسى أن يُنشر قريبًا.

(١٦) عن جريدة «الوزير» التُّونسيَّة (١٩٣٢م)، ضمن «رحلات جزائريَّة» (ص١٤٣).

(١٧) جريدة «المنار» (العدد ١٧/ ص١).



اعتقاد سفيان بن سعيد الثوري

قدم له وعلق عليه: د/ عبد المجيد جمعة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرف المرسلين، نبيِّنا محمَّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد، فهذه عقيدة شيخ الإسلام، وإمامِ الحفَّاظ، وسيِّد العلماء العاملين في زمانه، أبي عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثَّوري الكُوفِي المجتهد المتوفَّى سنة (١٢٦هـ) رحمه الله، أوصى تلميذه شعيب بن حرب أبا صالح المدائِني بأن يلتزمها، ويدين اللهَ بها إلى أن يلقاه، وهي عقيدةٌ مطابقة لما كان عليه أهل السُّنَّة والجماعة.

وقد رواها بإسناده الإمام اللَّالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة» (١/ ١٥١ ـ ١٥٤ رقم: ٣١٤)، وذكر الحافظ الذَّهبيُّ طرفًا منها في «سير أعلام النُّبلاء» (٧/ ٢٧٣)، وفي «العلوّ للعليِّ الغفَّار» (٣٧٤).

أمَّا إسنادها فـ:

محمَّد بن عبد الرَّحمن بن العبَّاس: هو أبو طاهر المخلِّص الذَّهبي البغدادي، الشَّيخ المحدِّث مُسْنِد وقته، مات في رمضان سنة (٣٩٣ هـ)، قال الخطيب: «كان ثقة»، انظر «السِّير» (١٦/ ٤٧٨).

وأبو الفضل شعيب بن محمَّد بن الراجيان: هو شعيب بن محمَّد بن عبيد الله بن خالد الراجيان أبو الفضل الكاتب المتوفَّى في النِّصف الآخر من شهر ربيع الآخر من سنة (٣٢٦ هـ)، قال الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٩/ ٢٤٦): «كان ثقة».

وعلي بن حرب الطَّائي الموصلي: هو ابن محمَّد

ابن عليٍّ أبو الحسن الطَّائي المحدِّث الإخباري صاحب «المسنَد»، مات سنة (٣٦٥ هـ)، وقد جاوز التِّسعين، قال الحافظ في «التَّقريب»: «صَدوق فاضل»، وانظر ترجمته في «تهذيب الكمال» (٢٠/ ٣٦١).

وشعيب بن حرب هو الإمام القدوة العابد شيخ الإسلام أبو صالح المدائني، المجاور بمكَّة، من أبناء الخراسانية، قال ابن معين: «ثقة مأمون»، توفي سنة (١٩٧ هـ)، انظر «السِّير» (٩/ ١٨٨).

وسفيان الثَّوري هو أشهر من أن يذكر، ومناقبه أكثر من أن تحصر.

وقد اعتمدت على نسخة خطيَّة مصوَّرة من المكتبة الظَّاهرية برقم (٣٨٧٤) [ضمن مجموع (ق ١٩١ ـ ١٩٢)]، واعتبرتها الأصل، وقابلتها بالرِّواية المذكورة في «أصول الاعتقاد»، ورمزت لها بحرف: «ك»، وصحَّحت الخطأ، واستدركت السَّقط، وأثبتُّ الزِّيادات، وجعلتها بين معقوفتين [ ]، وعلَّقت على بعض مسائلها بحَسْبِ ضيق المقام، وجهد المقلِّ، والله المستعان.



صورة عن ورقة من المخطوط



النَّصُّ المحقَّق:

[الحمد لله وحده][1].

أخبرنا محمَّد بن عبد الرَّحمن بن العبَّاس، قال: ثنا أبو الفضل شعيب بن محمَّد بن الرَّاجيان، قال: ثَنَا عليّ بن حرب الموصلي ـ بِسُرَّ من رأى سنة سبع وخمسين ومائتين ـ، قال: سمعت شعيب بن حرب يقول: «قلت لأبي عبد الله سفيان بن سعيد الثَّوري: حدِّثني بحديث من السُّنَّة[2] ينفعني الله [عزَّ وجلَّ][3] به، فإذا[4] وقفت بين يدي الله [تبارك و][5] تعالى، وسألني عنه، فقال لي: [من أين أخذت هذا؟ قلت: يا ربِّ! حدَّثني بهذا الحديث سفيان الثَّوري، وأخذته عنه، فأنجو أنا، وتؤاخذ أنت، فقال][6]: يا شعيب! هذا توكيد وأيُّ توكيد! اكتب:

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

القرآن كلام الله غير مخلوق، منه[7] بدأ وإليه يعود[8]، من قال[9] غير هذا فهو [كافر[10]][11].

والإيمان قول وعمل ونيَّة، يزيد وينقص، يزيد بالطَّاعة وينقص بالمعصية.

ولا يجوز القول إلَّا بالعمل، ولا يجوز القول والعمل إلَّا بالنيَّة، ولا يجوز القول والعمل والنيَّة إلَّا بموافقة [السُّنَّة[12]][13].

قال شعيب: [فقلت][14] له: يا أبا عبد الله! فما[15] موافقة السُّنَّة؟ قال: تقدِّم الشَّيخين أبا[16] بكر وعمر رضي الله عنهما[17].

يا شعيبُ! لا ينفعك ما كتبت حتَّى تقدِّم عثمان[18] وعليًّا على من بعدهما[19].

يا شعيب بن حرب! لا ينفعك ما كتبت لك حتَّى لا تشهد لأحد بجنَّة ولا نارٍ إلَّا للعشرة الَّذين شهد لهم رسول الله [ﷺ][20]، وكلّهم من قريش[21].

يا شعيب بن حرب! لا ينفعك ما كتبت لك حتَّى ترى المسح على الخفَّين دون خَلْعِهما أعدل عندك من غسل قدميك[22].

يا شعيب بن حرب! ولا ينفعك ما كتبت [لك][23] حتَّى يكون إخفاء «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم» في الصَّلاة أفضل عندك من أن تجهر[24] بها[25].

يا شعيب بن حرب! لا ينفعك ما كتبت لك[26] حتَّى تؤمن بالقدر خيره وشرِّه، وحُلْوِه ومُرِّه، كلّ من عند الله عزَّ وجلَّ.



يا شعيب بن حرب! والله ما قالت القدرية ما قال الله، ولا ما قالت الملائكة، ولا ما قال[27] النَّبيُّون، ولا ما قال أهل الجنَّة، ولا ما قال أهل النَّار، ولا ما قال أخوهم إبليس ـ لعنه الله ـ، قال

الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً [فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾]﴾[(٢٨)] [الجاثية: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقالت الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: ٣٢]، وقال موسى [عليه السَّلام][(٢٩)]: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وقال نوح ـ عليه السَّلام ـ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [هود: ٣٤]، وقال شعيب ـ عليه السَّلام ـ: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩]، وقال أهل الجنّة: ﴿[ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا][(٣٠)] وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال أهل النار: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، وقال أخوهم إبليس لعنه الله: [﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الحجر: ٣٩]][(٣١)].

يا شعيب! لا ينفعك ما كتبت [لك][(٣٢)] حتَّى ترى الصَّلاة خلف كلِّ برٍّ وفاجر، والجهاد [ماضٍ][(٣٣)] إلى يوم القيامة، والصَّبر تحت لواء السُّلطان جَارَ أم عَدَلَ.

قال شعيب: فقلت لسفيان: يا أبا عبد الله! الصَّلاة كلّها؟ قال: لا، ولكن صلاة الجمعة والعيدين[(٣٤)]، صلِّ خلف من أدركت، وأمَّا سائر ذلك فأنت مخيَّر [أن][(٣٥)] لا تصلِّيَ إلَّا خلف من تثق به، وتعلم أنَّه من أهل السُّنَّة والجماعة.

يا شعيب بن حرب! إذا وقفت بين يدي الله عزَّ وجلَّ فسألك عن هذا الحديث فقل: [يا ربِّ][(٣٦)] حدَّثني بهذا الحديث سفيان [بن سعيد][(٣٧)] الثَّوري، ثمَّ خلِّ بيني وبين ربي عزَّ وجلَّ، [وحسبنا الله ونعم الوكيل.

يا دهـر مهلًا لقد لـجئت في كنـفـي
اصبر فبعـض الَّـذي قـد حـلَّ بـي يكفي
أحـرمـتـني وطني وأفقـدتـني إلـفي
وسائل الدَّهر عنِّي هل غمض طرفي][(٣٨)]»

---

(١) ساقطة من «ك».

(٢) المقصود بالسُّنَّة هنا: الكلام في العقائد، ولهذا صنَّف كثير من علماء السَّلف كتبًا في بيان عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة، وسمُّوا ذلك كتب السُّنَّة، ليميِّزوا بين عقيدة أهل السُّنَّة وعقيدة أهل البدعة، كـ«السُّنَّة» لعبدالله بن أحمد والخلَّال والطَّبراني والأثرم واللَّالكائي وغيرهم، وهذا كقول ابن مسعود وأبي بن كعب وأبي الدَّرداء



ﷺ: «اقتصاد في سنَّة خير من اجتهاد في بدعة»؛ فالسُّنَّة كالشَّريعة: هي ما سنَّه اللهُ ورسوله ﷺ وما شرعه، فقد يراد به ما سنَّه وشرعه من الاعتقادات، وقد يراد به ما سنَّه وشرعه من العبادات، وقد يراد به كلاهما.

(٣) زيادة من «ك».

(٤) في الأصل: «إذا».

(٥) زيادة من «ك».

(٦) ساقطة من الأصل.

(٧) في الأصل: «ومنه».

(٨) هذا القول مأثور ثابت عن السَّلف، قال عمرو بن دينار: «أدركت مشايخنا منذ سبعين سنة يقولون: القرآن كلام الله، منه بدأ وإليه يعود» [«أصول الاعتقاد» للّالكائي (رقم٣٨١)؛ «صريح السُّنَّة» للطَّبري (رقم١٦)]؛ ومعنى «منه بدأ»: أي هو المتكلِّم به حقيقةً، وهو الَّذى أنزله من لَدُنْه، ليس هو كما تزعم الجهمية والمعتزلة وغيرهم: أنَّ القرآن لم يبدأ منه، وإنَّما خلق الكلام في محلٍّ فبدأ الكلام من ذلك المحلِّ، وفيه ردٌّ على الأشاعرة أيضًا حيث يقولون: «لم يبدأ منه شيء»، وإنَّما الكلام معنى قائم في نفسه، فلم يسمع جبريل كلامًا، وإنَّما هو الذي أحدث لفظ القرآن، والدَّليل على ما ذهب إليه السَّلف قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾، وأمَّا معنى «إليه يعود»: يعني أنَّه يسرى به في آخر الزمان من المصاحف والصُّدور حين لا يعمل بالقرآن، فلا يبقى في الصُّدور منه كلمة، ولا في المصاحف منه حرف.

(٩) في الأصل: «ومن».

(١٠) وقد انعقد إجماع أهل السُّنَّة على أنَّ من قال: إنَّ القرآن مخلوق فهو كافر.

(١١) وكذا في «العلوّ» (٣٧٤) للحافظ الذَّهبي، وفي «ك»: «كفر»، وأظنَّه خطأ من المحقِّق؛ لأنَّ النُّسَّاخَ قديمًا كانوا لا يمدُّون الحروف غالبًا.

(١٢) وإنَّما زاد: «ونيَّة» لأنَّ بعض النَّاس قد لا يفهم دخول النيَّة في ذلك، وهذا ظاهر؛ لأنَّ القول والعمل إذا لم يكن خالصًا لله تعالى لم يقبل، وقوله: «إلَّا بموافقة السُّنَّة» يعني الشَّريعة، وهي ما أمر الله به ورسوله؛ لأنَّ القول والعمل والنيَّة إذا لم يكن مسنونًا قد شرعه الله تعالى يكون بدعةً، ولهذا فإنَّ الأعمال لا تُقبل إلَّا إذا كانت خالصةً لله، موافقةً لشرعه، وهذا معنى قولهم: لا نعبد إلَّا الله، ولا نعبده إلَّا بما شرع، لا نعبده بالبدع والمحدثات.

(١٣) زيادة من «ك».

(١٤) زيادة من «ك».

(١٥) في «ك» : «وما».

(١٦) في «ك» : «تقدمة الشَّيخين أبي...».

(١٧) وهذا متَّفق عليه بين أئمَّة المسلمين المشهورين من الصَّحابة والتَّابعين وتابعيهم، ويدلُّ عليه ما ثبت عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كنَّا نخيِّر بين النَّاس في زمن النَّبيِّ ﷺ فنخيِّر أبا بكر ثمَّ عمر بن الخطَّاب ثمَّ عثمان بن عفَّان رضي الله عنهم»، رواه البخاري (٣٤٥٥)، بل ثبت عن محمَّد ابن الحنفية أنَّه قال: «قلت لأبي: أيُّ النَّاس خير بعد رسول الله ﷺ؟ قال: أبو بكر، قلت: ثمَّ مَنْ؟ قال: ثمَّ

عمر، وخشيت أن يقول عثمان، قلت: ثمَّ أنت، قال: ما أنا إلَّا رجل من المسلمين»، رواه البخاري (٣٤٦٨)، بل يروى هذا عن عليّ من ثمانين وجهًا.

(١٨) في «ك»: عثمانًا، وهو خطأ، لأنَّه ممنوع من الصَّرف.

(١٩) فيه إشارةٌ إلى أنَّ سفيان الثَّوري ـ رحمه الله ـ كان يتوقَّف في المفاضلة بين عثمان وعلي، وروي عنه أيضًا أنَّه رجَّح عليًّا على عثمان، ثمَّ رجع عن ذلك لما اجتمع به أيُّوب السِّختياني، وقال: من قدَّم عليًّا على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار، وهذا مذهب سائر الأئمَّة وجماهير أهل الحديث، بل هو إجماع منهم على ذلك، «انظر منهاج السنَّة» (٢/ ٣٨)، «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٢١ وما بعدها).

(٢٠) ساقطة من «ك».

(٢١) ويدلُّ عليه ما رواه عبد الرَّحمن بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَبُو بَكْرٍ فِي الجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الجَنَّةِ، وَسَعْدٌ فِي الجَنَّةِ، وَسَعِيدٌ فِي الجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ فِي الجَنَّةِ**»، أخرجه التِّرمذي (٣٦٨٠)، وأحمد (١٥٨٥)، وقال الألباني ـ رحمه الله ـ في «صحيح الجامع» (٥٠): «صحيح».

(٢٢) هذه المسألة فقهيَّة، وإنَّما ذكرت في العقيدة؛ لأنَّ طوائف من أهل الأهواء والبدع من الخوارج والرَّوافض أنكروا المسح على الخفَّين، وزعموا أنَّ ذلك خلاف كتاب الله، ولهذا نصَّ عليه أهلُ السُّنَّة في عقائدهم، وقد ثبت ذلك عن النَّبيِّ ﷺ قولًا وفعلًا بلغت حدَّ التَّواتر، وقد فعله بعده الصَّحابة، وأجمعت عليه الأمَّة، فلا يعتدُّ بمخالفة المبتدعة في ذلك، قال في «الطَّحاوية»: «ونرى المسح على الخفَّين في السَّفر والحَضَرِ، كما جاء في الأثر».

(٢٣) ساقطة من «ك».

(٢٤) هذه أيضًا من المسائل الفقهيَّة، وقد اختلف فيها السَّلف، وأفردها بعضهم بالتَّصنيف، كالإمام الهَرَوِي والخطيبِ البغداديِّ وأبي طاهر البَزَّارِ البغدادي وغيرهم.

(٢٥) في «ك»: «بهما».

(٢٦) في «ك»: «الذي كتبت».

(٢٧) في «ك»: «قالت».

(٢٨) زيادة من «ك».

(٢٩) زيادة من «ك».

(٣٠) زيادة من «ك».

(٣١) زيادة من «ك».

(٣٢) ساقطة من «ك».

(٣٣) زيادة من «ك».

(٣٤) في الأصل: «العيدين خلف من أدركت»، ولعلَّه تَكْرَارٌ، أو سَبْقُ نَظَرٍ.

(٣٥) ساقطة من «ك».

(٣٦) زيادة من «ك».

(٣٧) زيادة من «ك».

(٣٨) ساقطة من «ك».

جلسة في قاعة الانتظار

محمد بوسلامة

اشتدَّت بي يومًا وعكة فَغَدَوْتُ إلى الطَّبيب ألتمس دواءً، وكان قد حبسه عنَّا حابس، فما بلغ حتَّى بلغت السَّآمة من القلوب مبلغًا عميقًا، فجلست في حجرة الانتظار أرقب نوبتي في أناس آخرين؛ فمكثنا ساعةً من نهار كأنَّ الطَّير على رؤوسنا، وقد شُدَّت الأفواه بأقفال الصَّمت فلم تنبس الشِّفاه ببناتها، ولو عثرت نملةٌ لسُمع لعثارها صدى، ولم يكن من القوم إلَّا تقليب الأبصار في أركان الحجرة والتَّأمُّل في زخرفها، وطال الصَّمت فطال الزَّمان، وقهر القلوب سلطانُ الملل فترجمت عنها الجوارح، فهذا يلوي عنقه ويخفِّف بذلك ألم الفقار من طول القعود، وآخر قد جمع كفَّيه ينفخ فيهما فتسمع له زفرة المصدور، وفتل آخر شاربه، وعبث آخر بلحيته، وربما شغل بعض القوم بأنفه وإنَّ له في ذلك لَشُغْلًا، وكثر التَّثاؤب فكنت من المتثائبين وإنَّ لي من عدواه عجبًا؛ ومنه أنَّني رأيت يوما هرًّا يتثاءب فتثاءبت، كلُّ ذلك والقوم لا ينطقون، ولقد كان من عادتي أن لا أحل موطنًا إلَّا أجلت فيه الفكر واستنبأته عمَّا انطوى عليه من العِبَر.

وكان من بركة هذه السنة عليَّ أن وعظتني يومًا نملة موعظةً بليغةً جرى لها القلمُ في مقالة مسجعة سمَّيتها: «موعظة نملة»؛ وكان ذلك زمن اشتغالي بالأسجاع، ولعلَّك تقرؤها يومًا؛ فقلت في نفسي: إن كان الصَّمت محمودًا فلا ينبغي أن يحمد في مثل هذا الموطن، وإن كان الكلام مذمومًا فلا ينبغي أن يُذَمَّ في مثل هذا الموطن، فاجتمع عندي من هذا وذاك أنَّ الكلام والصَّمت إنَّما يُحمد كلٌّ منهما في موطنه، فالصَّمت في موضع الكلام مذموم

كالكلام في موضع الصَّمت، والموَفَّق من وضع كلاًّ في موضعه، وكلُّ ذلك إنَّما يُحْكِمُهُ لبُّ اللَّبيب؛ فالصَّمت والكلام إن لم يكن وراءهما لبٌّ كان الصَّمت عيًّا والكلام خطلًا، وكلُّ ما أُلِّف في فضل الصَّمت إنَّما هو منزل على مواطن فضله؛ ولا أدري هل ألَّفوا في فضل الكلام أم لا؟ فإن فعلوا كان ذلك من الإنصاف، وكلُّ ما أُلِّف في آفات الكلام إنَّما هو منزَّل على مواطن ذمّه؛ ولا أدري هل ألَّفوا في آفات الصَّمت أم لا؟ فإن فعلوا كان ذلك من الإنصاف ولو احتكم إليَّ الصَّمتُ والكلام لحكمت للكلام في أكثر الخصومات؛ ذلك لأنَّني أرى أنَّ الأصل في الصَّمت عدم النَّفع؛ لأنَّه عدم وأن أصل الكلام المنفعة؛ فالعاقل لا يتكلَّم إلَّا بما يصلحه وما خُلق كلام النَّاس إلَّا لمصالحهم وحوائجهم ولا يخرج الشَّيء عن أصله في أكثر أحواله.

ولم يكن الصَّمت دليلًا بنفسه، فما دلَّ منه على شيء فإنَّما ذلك بمعونة القرائن، وما أخذ الفقهاء الأحكام من سكوت النَّبيِّ ﷺ على أنَّ السُّكوت دليل بنفسه على الإباحة مثلًا، وإنَّما أخذوا ذلك من حيث كونه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ لا يسكت على الباطل، فكأنَّه قال لهم: ما سكتُّ عنه فهو حلال؛ فصار سكوته في قوَّة الكلام، ولذلك اختلفوا في سكوت غيره؛ وما كان سكوت البكر دليلًا على رضاها، وإنَّما علم ذلك من شدَّة خجلها من التَّصريح بالرِّضى بخلاف عدم الرِّضى فإنَّه لا يخجلها التَّصريح به، ولذلك لما انتفت هذه العلَّة عند الثَّيِّب رجع السُّكوت إلى أصله، ولو اطَّلع الفقهاء على أبكار زماننا لما اكتفوا منهنَّ بالسُّكوت.

كلُّ ذلك والقوم لا ينطقون وطال الصَّمتُ فطال الزَّمان وخلا المكان من معاني الأنس، فلا تسمع للقوم حوارًا ولقد كانت المحاورة من أجلِّ معاني الأُنس الَّتي يجدها الإنسان في الإنسان وإنَّما يُدخل عليك الوحشة الرَّجل السّكيت الَّذي لا يكاد ينطق؛ وذلك لأنَّ الحوار وَقود الأنس وأن الصَّمت مُخمد لجذاه، ولهذا فإنَّك لا تأنس برجل يحدِّثك بغير لغتك؛ لأنَّه في مقام السَّاكت وإن كان هذا أقرب إلى التَّأنيس من الَّذي لا يحدِّثك أصلًا.

ولقد زعم أهل البصرة أنَّ لفظ «الإنسان» مأخوذ من الأُنس، فإن صَفا لهم قولُهم صَفا لنَا ـ إن شاء الله ـ أن نقولَ: إنَّ المحاورةَ هي من أعظم المعاني الَّتي من أجلها سُمِّيَ الإنسان إنسانًا، وكلُّ من لم يأنسك بحديثه وسكت في موطن المؤانسة والكلام فقد انتقصَ من إنسانيَّته، وما ظنُّك بقوم يجتمعون في ذلك المكان والزَّمان لا يتحدَّثون، وإنَّ



مثل هذا الصَّمت لفاشٍ في بني قومي، وإن أردتَ له نظيرًا فاطلُبْه في الولائم ومجامع الأفراح حيث تكون غاية الحاضرين هَبْرة على كثيب الكُسْكُسِ، ثمَّ بعد ذلك يتفرَّقون وقد يكون فيهم الفقيه والأديب والحكيم والظَّريف فيضيع اجتماعهم بلا شيء.

وكان ينبغي أن تهتبل هذه المناسبات السَّعيدة فيجتمع القوم في مكان يطيب فيه الحديث وتدور الكلمة على الألسن، فيتكلَّم الفقيه والأديب وأولو النُّهى، ويستمع غيرهم ويتظرف فيه أهل النَّوادر والقصَّاصون، وتنشد فيه الأشعار من الفصيح والملحون، وقد يكون فيهم رجل من أهل الملاحم الَّذين جاهدوا الاحتلال الفرنسي فيروي ملحمةً كانت من أيَّام الجزائر تزيد الشَّباب حبًّا لهذا الوطن، فيكون مجلسًا يتعلَّم فيه النَّاس حسن المحاورة وطرائق الكلام، وقد يجتمع كلُّ هؤلاء النُّبلاء في وليمة واحدة ثمَّ لا يحصل شيءٌ من ذلك فيتفرَّق بتفرُّقهم خيرٌ كثير، ويضيع ما هو خيرٌ من الطَّعام والشَّراب، وقد أكون آخذًا بطرفٍ من الخيال إذا حدَّثتك هذا الحديث؛ ولكن ما ذكرته لك له حقيقة عند غيرنا من الَّذين تتفجَّر ينابيع ثقافتهم حيثما اجتمعوا، وإن كان هذا عسيرًا فليس عسيرًا على الرَّجل أن يجمع أولاده فيحدِّثهم ساعةً يعجم فيها أعوادهم ويخبر ما عندهم، فقد يكون الولد ضعيف الإدراك فيفطن له والده فيسلك به في الحديث مسالك الرُّشد والنَّباهة حتَّى لا ييبس عوده على العيِّ والسَّفاهة فتندمل نفسُه على الحمق كما يندمل الجرح على الفساد.

وقد يكون الولد ذكيًّا لبيبًا فتزيده المحاورة توقُّدًا لشعلة ذهنه وصقلًا لمواهبه فيكون مجلسًا يستفيد فيه الذَّكيُّ والغبيُّ، ويتحدَّث فيه الآباء والأبناء فكلٌّ مُسْتَمِعٌ ومتكلِّم، وكلٌّ آخذ ومُعطٍ، فلا يقومون إلَّا ونفوسهم تائقة إلى مجلس مثله فينشؤون على حبِّ المحاورة وحسن الحديث؛ كلُّ ذلك والقوم لا ينطقون، ولو كان سكوتهم سكوت ورع يخشى زلَّات اللِّسان لقلت إنَّ القوم يتورَّعون وإنَّهم من أهل قوله ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»، ولكنَّ الورع قد مات أهلُه، وإنَّما هو العيُّ الَّذي عَقَل العقول، والفهاهة الَّتي حبست الألسن؛ ثمَّ إنَّني قد تأمَّلت قوله ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ وشمتُ بروق معانيه فلاح لي منها بارق لطيف يضيء لنا ما نحن فيه، ووجهه أنَّه ﷺ حثَّ أوَّلًا على قول الخير ونكَّره ليشمل خير الدِّين

والدُّنيا، فكان في تقديمه دلالة على أنَّه الأولى وأنَّه ينبغي البحث عن مواضع الكلم النَّافع فيجرى بها اللِّسان، ولست أرى التَّخيير هنا مستوي الطَّرفين كالَّذي في قولك: «صاحب أيَّ الرَّجلين شئت زيدًا أم عمرًا» وإنَّما هو كالَّذي في قولك: «كن عالمًا أو طالبَ علم» أي إنِ استطعت أن تكون عالمًا فَافْعَلْ، فإنَّها أبعد الغايتين وأعلى المنزلتين، فإن أعياك أن تكون عالما فلا أقلّ من أن تكون طالبَ علم.

فالتَّقديم في هذا المثال وفي الحديث الشَّريف إنَّما هو لبيان الأشرف وهو مشعر بالاهتمام، فيكون المعنى حينئذ إن استطعت أن تقول خيرًا فافعل فهو الأجدر، فإن لم تجد خيرًا فاصمت؛ فكلُّ من صمت وعنده خير يقوله فليس بصامت على الوجه الَّذي طُلِبَ منه؛ ومن يسكت دون أن يلتمس خيرًا يقوله كان كمن تيمَّم دون بحث عن الماء، فإن كان عنده خيرٌ كان كمتيمِّم بحضرة الماء؛ وهذا المعنى الَّذي ذكرته تشهد له مقاصد الشَّريعة ويعين على فهمه تذوُّق كلام العرب، ولا يقدر الإنسان أن يقول خيرًا إلَّا إذا أعمل فكره وتلمَّس لذهنه الموارد وليس ذلك بعسير؛ ولكنَّه الكسل الَّذي أصاب الأبدان فأخملها، قد كرَّ مرَّة أخرى فأصاب العقول فأهملها، كلُّ ذلك والقوم لا ينطقون؛ ثمَّ طفقت أتوسَّم وجوه القوم لعلَّها تخبرني خبر الألسن المكبولة، وكنت في كلِّ موطن من المتوسِّمين فيأخذني من الظُّنون ما قرب وما بعد ثمَّ أتغلغل في أعماق التَّاريخ فأستدلُّ بما غبر على ما حضر ثمَّ أرجع بعد ذلك آسفا على أمَّةٍ مسخت حضارتها ونسخت نضارتها، أمَّةٍ ركبت في مضامير الفخار هملاجًا ولبست أيَّام زينتها ديباجًا فأبدلها دهرها من الهملاج قطوفًا ومن الدِّيباج صوفًا، فكان من آثار غُبْنِها هذه الألسن المكبلة الَّتي لا تحسن التَّرجمة عمَّا يلابس الأفئدة مع كثرة الموضوعات النَّافعة في الدِّين والدُّنيا.

ولست آسف على ذي كمَهٍ كأسفي على من كان بصيرًا ثمَّ عميَ إن هذا الدَّاء ليتحسَّى بلسمه جيل زَمِنٌ فيظهر الشِّفاء في أجيال تأتي بها أزمنة أخرى، وكذلك تُداوى الأمم، وطال الصَّمت فطال الزَّمان، ثمَّ أطمع في الَّذي يحاذيني فألقي إليه الكلمة لعلَّها ترجع منه بأختها فأحش بهما للحديث ضرامًا، وأجعل منهما للصَّمت صرامًا فيجيبني بما لا مطمع فيه في بحَّة صنعها صمت طويلٌ ثمَّ عاد إلى صمته وعدت إلى خواطري الَّتي قيَّدتها لك مساطري ثمَّ جاءت نوبتي فقمت وتركت القوم في صمت مديد وكان ذلك آخر الشأن، تمت.

قراءات تربوية في بعض الأحاديث النبوية

فريد عزوق

*** المقدمة:**

تُعَدُّ السُّنَّة النَّبويَّة المصدر الثَّاني من مصادر التَّربية الإسلامية، والمسلك العمليُّ في بناء الأفراد وإعدادهم؛ ذلك لأنَّ الله تعالى كلَّف نبيَّه ﷺ بمهام عظيمة منها التَّربية والتَّعليم؛ فقال سبحانه ﴿**هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢**﴾ [الجمعة: ٢]، فقام ﷺ بذلك أحسن قيام حتَّى توفَّاه الله تعالى، فأخرج أمَّةً هي خيرُ الأمم على مستوى التَّديُّن والتَّخلُّق والتَّعلُّم؛ لأنَّها كانت هدفًا لتربية النَّبيِّ ﷺ وغرضًا لتعليمه وتوجيهه، فشهد بذلك الصَّغير والكبير، والمرأة والرَّجل، والخادم والعبد والسَّيِّد، يقول أنس رضي الله عنه: «خدمت رسولَ الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي أفًّا قطّ؛ ولا قال لي لشيء: لِمَ فعلتَ كذا، وهلَّا فعلتَ كذا»[1]، ويقول معاويةُ بنُ الحكمِ السُّلمي: «فلمَّا صلَّى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمِّي ما رأيت معلِّمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني؛ قال: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاة لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ القُرْآنِ**» أو كما قال رسول الله ﷺ[2]، بل شهد النَّبيُّ ﷺ بذلك على نفسه وهو الصَّادق المصدوق الَّذي لا ينطق عن الهوى، فقال: «إنَّ الله لم يبعثني معنتًا ولا متعنتًا؛ ولكن بعثني معلِّمًا ميسِّرًا»[3].

لذا أصبح من الضَّروري العودة إلى هذا

الأصل العظيم لتحديد المقاصد والوسائل النَّاجعة في التَّربية والتَّعليم.

وفي هذه الصَّفحة يحاول الباحث قراءة بعض الأحاديث النَّبويَّة قراءةً تربويَّة ليستخرج ما يستفاد منها في حياتنا التَّعليمية والتَّربويَّة.

الحلقة الأولى ـ حديث جبريل[٤]:

يعدُّ هذا الحديث العظيم أصلًا من أصول العلم، ومسلكًا رشيدًا من مسالك التَّعليم والتَّعلُّم، ذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال فيه: «**إِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**»، فهو حديث غرضه التَّعليم، ولذا كان لزامًا معرفة ما علَّمَه والطَّريقة الَّتي عَلَّم بها، وقد تجلَّى ذلك فيما يلي:

١ ـ بيَّن هذا الحديث الأسس الشَّرعيَّة الَّتي تحقِّق حسن التَّديُّن، والأصول التَّربويَّة الَّتي تبني جوانب الشَّخصية لكلِّ مسلم، فشملت الأنواع الثَّلاثة مصلحة الإنسان الدُّنيويَّة والدِّينية، قال ابن القيِّم رحمه الله: «أكمل النَّاس لذَّةً من جمع له بين لذَّة القلب والرُّوح، ولذَّة البدن فهو يتناول لذَّاته المباحة على وجه لا ينقص حظُّه من الدَّار الآخرة، ولا يقطع عليه لذَّة المعرفة والمحبَّة والأنس بربِّه»[٥].

فالإسلام جاء لمصلحة البدن، وأصوله في الشَّهادتين والصَّلاة والزَّكاة والصَّوم والحجِّ، والإيمان جاء لمصلحة العقل، وأصوله في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشرِّه، والإحسان جاء لمصلحة روحه، وأصله في إشباع الرُّوح بالحبِّ والخوف والرَّجاء.

٢ ـ أشار هذا الحديثُ العظيمُ إلى أن المعلِّم ينبغي أن يكون مفيدًا وعمليًّا؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لما سُئل عن الإسلام والإيمان والإحسان لم يكن جوابه مفاهيم تجريدية وتعاريف تخضع لحدود منطقية صِرْفَة لا معنى لها في واقع النَّاس، بل فسَّر الإسلام بأركانه، والإيمان بأصوله، والإحسان بأساسه، فمن حقَّقها فقد حقَّق أصول الدِّين وأركانه.

وفي هذا تنبيه للمعلِّمين على ضرورة الاهتمام بالجانب العملي والتَّطبيقي في التَّعليم، فلا يحشى رأس التِّلميذ بمفاهيم وحدود مجرَّدة لا تبني شخصيَّته، ولا تعدل سلوكه، ولا تصطحبه عند البحث عن حلول لمشكلاته، ولهذا قال الشَّاطبي رحمه الله: «كلُّ مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها خوض فيما لم يدلَّ على استحسانه دليلٌ شرعيٌّ

وأعني بالعمل عمل القلب وعمل الجوارح من حيث هو مطلوب شرعًا»[٦]، وقال أيضًا: «العلم الَّذي هو العلم المعتبر شرعًا أعني الَّذي مدح الله ورسوله على الإطلاق هو العلم الباعث على العمل الَّذي لا يخلِّي صاحبه جاريًا مع هواه كيفما كان، بل هو المقيِّد لصاحبه بمقتضاه، الحامل له على قوانينه طوعًا أو كرهًا»[٧]، وقال ابن خلدون رحمه الله: «واعلم أنَّ الكمال عند الشَّارع في كلِّ ما كلَّف به إنَّما هو في هذا، فما طلب اعتقاده فالكمال فيه هو العلم الثَّاني الحاصل عن الاتِّصاف، وما طلب عمله من العبادات فالكمال فيها في حصول الاتِّصاف والتَّحقُّق بها»[٨].

٣ ـ بيَّن هذا الحديث أنَّ التَّعليم عمليَّة تربويَّة تهدف إلى بناء الإنسان المسلم، فتبدأ بالأسس والأركان قبل الأسقف والجدران؛ لأنَّ ما استفاده الصَّحابة من مفهوم الإسلام والإيمان والإحسان في هذا الحديث هو الأركان لا كلّ الدِّين، وعليه؛ فإنَّ مراعاة بناء هذه الأصول وغرسها في الأطفال منذ الصِّغر حتَّى يشبُّوا عليها ـ وقد قوي البناء وقدر على حمل الأعباء ـ من مستلزمات التَّربية الإسلامية ومتطلَّباتها الأساسيَّة.

يقول ابن أبي زيد القيرواني ـ رحمه الله ـ في مقدِّمة الرِّسالة: «وقد جاء أن يؤمروا بالصَّلاة لسبع سنين ويضربوا عليها لعشر، ويفرَّق بينهم في المضاجع، فكذلك ينبغي أن يعلموا ما فرض الله على العباد من قول وعمل قبل بلوغهم ليأتي عليهم البلوغ، وقد تمكَّن ذلك من قلوبهم وسكنت إليه أنفسُهم، وأنست بما يعملون به من ذلك جوارُحهم، وقد فرض الله تعالى على القلب عملًا من الاعتقادات، وعلى الجوارح الظَّاهرة عملًا من الطَّاعات»[٩].

٤ ـ بيَّن هذا الحديث أنَّ الطَّريقة الَّتي علم بها جبريل الصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ هي طريقة فذَّة ومُثْلَى، حيث اعتمد على الاستجواب أو السُّؤال والجواب، فالسَّائل جبريل عليه السَّلام، ومع ذلك عدَّه النَّبيُّ ﷺ معلِّمًا، وفي ذلك دليل على أنَّ طريقة السُّؤال من المعلِّم أو الاستجواب طريقة علميَّة صحيحة وتعليميَّة مفيدة؛ لأنَّها تستخرج المعلومة من أفواه التَّلاميذ، فتكون أرسخ في الفهم وأبقى على الأثر، وهو ما تنادي به التَّربية في العصر الحديث، وهذا ينبِّه إلى ضرورة أخذ المعلِّمين بهذا الأسلوب في تدريس المواد التَّعليمية، ولا يقال

بصعوبته في المواد الشَّرعية، فالحديث ردٌّ عليه، وإقرار بجدواه.

٥ ـ بيَّن هذا الحديث أنَّ الطَّريقة الَّتي علم بها جبريل الصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانت مثيرة لهم، خصوصًا وقد اشتملت على أساليب الجذب والتَّنبيه، ممَّا أثار فيهم التَّشويق، وحرَّك دافعيتهم للتَّعلم، ومن صور التَّنبيه والجذب:

ـ مجيء جبريل ـ عليه السَّلام ـ في نظر الصَّحابة من بعيد، ولكن لم ير عليه أثر السَّفر.

ـ تصديق جبريل ـ عليه السَّلام ـ لإجابة النَّبيِّ ﷺ: «فعجبنا له يسأله ويصدِّقه».

ـ حرص الصَّحابة على معرفة حقيقة السَّائل.

ـ طريقة جلوس جبريل ـ عليه السَّلام ـ مع النَّبيِّ ﷺ.

وفي هذا تنبيه إلى ضرورة استخدام المعلِّمين لأساليب الجذب والتَّنبيه حتَّى يثيروا دافعيَّة طلَّابهم للتَّعلُّم، ويشوِّقوهم للمعرفة والاكتشاف، ويحفِّزوهم على التَّجاوب مع ما يعطى لهم، ويحرِّكوا فيهم حبَّ الاستزادة والتَّركيز لما يقال.

---

(١) البخاري في «صحيحه» برقم (٥٦٩١)، ومسلم في «صحيحه» برقم (٢٣٠٩) واللَّفظ له.

(٢) مسلم في «صحيحه» برقم (٥٣٧).

(٣) مسلم في «صحيحه» برقم (١٤٧٨).

(٤) حديث جبريل، أخرجه مسلم في «صحيحه» في كتاب الإيمان: باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى (١/ ٣٦) برقم (٨) و(١/ ٣٩) برقم (٩) و(١/ ٤٠) برقم (١٠).

(٥) ابن القيم: «الفوائد» (ص١٥٠).

(٦) الشاطبي: «الموافقات» (١/ ٤٦).

(٧) الشاطبي: المرجع السابق (١/ ٦١).

(٨) ابن خلدون: «المقدمة» (ص٤٦١).

(٩) ابن أبي زيد القيرواني: «مقدمة الرسالة» (٥٥).



عبارات عقدية فاسدة

عمر الحاج مسعود

هذه ـ أخي القارئ ـ المجموعة الثَّانية من العبارات العقدية الفاسدة المشتهرة على ألسنة كثير من النَّاس، وفسادها راجع إلى تضمُّنها اعتقادًا فاسدًا أو أنَّها تذكر في غير موضعها.

١ ـ فلان مِسْكين ما يْسَتْهَلْش:

إذا أصيب أحدُ الأشخاص المحبوبين بمصيبة أو مات بحادث أليم، قال بعض النَّاس: فلانٌ مسكين ما يستهلش، وفي هذا عدَّة محظورات:

الأوَّل: الاعتراض على قدر الله عزَّ وجلَّ، وأنَّه لا ينبغي أن تحلَّ المصيبة أو الحادث بهذا الشَّخص المحبوب وهو مناف للإيمان بالقدر، والله تعالى يقول: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: ١١].

الثَّاني: منافاة تلك المصيبة للحكمة؛ لأنَّه يفرض ـ في زعم أولئك القائلين ـ أن لا يموت ذلك الشَّخص بذلك السَّبب، ولا تصيبه تلك المصيبة، وهذا سَفَهٌ وحمق وجهل، وسوء ظنٍّ بالله جلَّ وعلا.

إنَّ كلَّ ما يقع من خير وشرٍّ، وسيِّئة وحسنة وموت وحياة هو من رحمة الله وفضله وحكمته وعدله، وله في ذلك عزَّ وجلَّ الحكمة الباهرة، والحجَّة البالغة والنِّعمة السَّابغة، وهو الرَّحمن الرَّحيم، العزيز الحكيم، السَّميع العليم، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص: ٦٨]، وجاء في دعاء الهمِّ والحزن: «اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ

فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ...»[1].

وهذا يتضمَّن نفوذ حكمه في عبده وكمال ملكه وقهره، وحمده وعدله، قال عن نبيِّه هود عليه السلام: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦﴾ [هود: ٥٦][2].

الثَّالث: وصف الله بالظُّلم؛ لأنَّ ذلك الشَّخص مات بتلك الطَّريقة أو نزلت عليه تلك المصيبة ـ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ـ قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا»[3].

ثمَّ ينبغي أن يُعلم أنَّ هذه المصيبة قد تكون خيرًا للإنسان، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[4].

٢ ـ هذه السَّاعة الحمد لله، وساعة اخْرَى مَا نَعْرَف:

إذا سُئل بعض النَّاس عن حاله أجاب بقوله: «هذه السَّاعة الحمد لله، وساعه اخْرَى ما نعرف».

ومعنى هذا أنَّه قد لا يحمد في ساعة أخرى، وهذا خلاف ما يجب أن يكون عليه المسلم من حمد الله عزَّ وجلَّ في جميع الأحوال: في السَّرَّاء والضَّرَّاء في الغنى والفقر، في الصِّحة والمرض.

كيف لا، وقد أمر أن يتلو قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢] في اليوم واللَّيلة سبع عشرة مرَّة أو أكثر، وكان النَّبيُّ ﷺ إذا رأى ما يحبُّ قال: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ» وإذا رأى ما يكره قال: «الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»[5].

وعن عبد الله بن عَمْرو قال: قال النَّبيُّ ﷺ لرجل: «كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا فُلَانُ؟»، قال: أحمد الله إليك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «هَذَا الَّذِي أَرَدْتُ مِنْكَ»[6].

فمن عرف ربَّه، وعرف أسماءه الحسنى وصفاته العلى حمده ليلَ نهار، صباحَ مساءَ، ولهذا كانت كلمة الحمد لله أفضل الدُّعاء، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ: الحَمْدُ للهِ»[7].

٣ ـ عُمْرك طْوِيل أو عُمْرُهُ طويلة:

إذا حضر شخص أثناء الحديث عنه قيل له: عمرك طويل، يستدلُّ بحضوره على طول عمره، وهذا ينافي



الاعتقاد الصَّحيح الواجب اعتقاده من كون الأعمار بإذن الله الواحد القهَّار لا يعلم طولها وقصرها إلَّا هو، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس: ٤٩]، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤].

وقال النبي ﷺ: «**وَلَنْ يُعَجِّلَ شَيْئًا قَبْلَ حِلِّهِ، أَوْ يُؤَخِّرَ شَيْئًا عَنْ حِلِّهِ**»[٨]، يعني عن حينه.

نعم هناك أسباب تزيد في العمر؛ لكن لا يمكن معرفتها إلَّا عن طريق الوحي، وحضورُ الشَّخص أثناء الحديث عنه ليس منها.

وقد ثبت أنَّ صلة الرَّحم، والبرَّ: يزيدان في الأعمار، قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»[٩]، وقال: «**تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الأَهْلِ، مَثْرَاةٌ فِي المَالِ، مَنْسَأَةٌ فِي الأَثَرِ**»[١٠]، وقال: «**لَا يَرُدُّ القَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي العُمرِ إِلَّا البِرُّ**»[١١].

ملاحظة: الأعمار التي يدخل عليها الزِّيادة والنَّقص، والأرزاق التي يقع فيها البَسْط والقَدْر هي ما في كتب الملائكة، أمَّا ما في أمِّ الكتاب فلا يتغيَّر ولا يتبدَّل.

قال ابن تيمية: «والأجل أجلان: أجل مطلق يعلمه الله، وأجل مقيَّد،... فإنَّ الله أمر الملك أن يكتب له أجلًا، وقال: «إنْ وصل رَحِمَه زدته كذا وكذا، والملك لا يعلم أيزداد أم لا؛ لكن الله يعلم ما يَستقرُّ عليه الأمر، فإذا جاء ذلك لا يتقدَّم ولا يتأخَّر»[١٢].

وقال: «والرِّزق نوعان: أحدهما: ما علمه الله أنَّه يرزقه فهذا لا يتغيَّر.

والثَّاني: ما كتبه وأَعْلَمَ به الملائكة فهذا يزيد وينقص بحسب الأسباب... والأسباب الَّتي يحصل بها الرِّزق هي من جملة ما قدَّره الله وكتبه»[١٣].

وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩].

٤ ـ هذه المُصِيبة لِي اعْطَاهَا لِي رَبِّي:

تكثر هذه العبارة عند النِّساء، يَقُلْنَها من باب التَّسخُّط والقنوط وربَّما الاعتراض على القَدَرِ.

فإذا كان الصَّبيُّ ـ أو الصَّبيَّة ـ كثير الحركة والإزعاج لوالدته، سخطت عليه وضاق منه صدرها، وذرب لسانها، وقالت هذه العبارة، وربَّما دعت عليه بالشَّرِّ.

ولا يخفى ما في هذه العبارة ـ في هذه الحالة

والمناسبة ـ من القنوط وقلّة الصّبر والتّسخُّط على أفلاذ الأكباد، وعدم شكر الله ربِّ العباد.

قال تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾ [فصلت: ٤٩].

وفيها دعوى الجاهلية، والنَّبيُّ ﷺ يقول: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطمَ الخُدُودَ وَشَقَّ الجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ»(١٤).

من دعوى الجاهلية: النِّياحة والنّدب والدُّعاء بالوَيْلِ والثُّبور.

إنَّ المؤمن يدعو بصلاح ذرِّيَّته وهداية أولاده، قال تعالى في وصف عباد الرَّحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]، وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف: ١٥].

كما ينبغي أن يتَّقي فيهم ربَّه، ويأخذ منهم حِذره، ويحرص على تعليمهم وتأديبهم ويجتهد في تزكيتهم وإصلاحهم وإلَّا كانوا له أعداءً.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: ١٤ـ١٥].

٥ ـ يَا رَبِّ وَعْلَاشْ، وَاشْ دَرْتْ:

تكثر هذه العبارة عند النِّساء، فإذا أُصيبت إحداهُنَّ بمصيبة أو نَزَلَ بها بلاءٌ جزِعَت وقَنَطَتْ وأساءت الأدب مع ربِّ الأرض والسَّماء، واعترضت على القَدَرِ والقضاء، ورفعت عقيرَتها بالويل والثُّبور وسوء الدُّعاء.

وهذه العبارة فيها الاعتراض على قدر الله وحُكْمِه، وسوء الظَّنِّ فيه واتِّهامه بالظُّلم، وادِّعاء منافاة تلك المصيبة للحكمة والعدل، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وفيها الدُّعاء بدعوى الجاهلية ومواجهة المصيبة بالتَّسخُّط المنافي للصَّبر، وكلُّ هذا سبق بيانه وشرحه.

وفيها كذلك الجهلُ بأنَّ المصائب ـ وإن كانت بإذن الله ـ سببها كسبُ العبد وذنبُه، ومصدرها نفسُه وعَيْبُه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال لنبيه ﷺ ـ وهو أعلم الخلق بالله وأتقاهم



وأشدُّهم له خَشية: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٩]، وقال لأصحابه ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وتلك المسكينة تقول: «وَعْلَاشْ، وَاشْ دَارَتْ».

ثمَّ إنَّ تلك المصيبة قد تكون خيرًا للإنسان إذا واجهها بالصَّبر والإيمان؛ لأنَّ المؤمن لا يعارض ربَّه وقدرَه، ولا ينازع خالقَه وحُكْمَه، وإذا ابْتُلِيَ وامْتُحِنَ صَبَرَ واسترجع، قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٦ ـ ١٥٧].

أما قول: «لِمَ، وَوَعْلَاشْ»، فلا يصدر إلَّا ممَّن لا يقدر ربَّه حقَّ قَدْرِه ويجهل أسماءَه وصفاتِه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨]، وقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص: ٦٨]، وقال: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

لا يسأل عزَّ وجلَّ عمَّا يفعل لكمال حكمته وعلمه، ولأن أفعاله صادرة عن تمام الحكمة والرَّحمة والمصلحة، فاعتراض المعترضين عليه وسؤال السَّائلين له ينافي كمال علمه وحكمته وربوبيَّته، فله الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير[١٥].

وقال ﷺ: «لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَـهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَـهُمْ مِنْ أَعْمَالِـهِمْ»[١٦].

وقد كان السَّلف يمتحنون غيرهم على هذه العقيدة:

فعن أبي الأسود الدِّيلي[١٧] قال: قال لي عِمْرَان ابنُ الحصين: أرأيت ما يعمل النَّاس اليوم ويَكْدَحُونَ فيه، أَشَيْءٌ قُضِيَ عليهم ومضى عليهم من قَدَرِ ما سبق؟ أو فيما يستقبلون به ممَّا أتاهم به نبيُّهم، وثبتت الحجَّة عليهم؟ فقلت: بل شيء قُضي عليهم ومضى عليهم، فقال: أفلا يكون ظُلْمًا؟ فَفَزِعْتُ من ذلك فزعًا شديدًا، وقلت: كلُّ شيء خلقُ الله وملكُ يَدِهِ، فلا يُسأل عمَّا يفعل وهم يُسألون، فقال لي: ـ يرحمك الله ـ إنِّي لم أرد بما سألت

إلَّا لأحرز عَقْلَك»[١٨].

إنَّ فعل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحكمه فيه الرَّحمة والفضل والحكمة والعدل، وهذا مقتضى أسمائه وصفاته.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٧١٢) وابن حبان (٩٧٢)، وسنده صحيح، كما في «الصحيحة» للألباني (١٩٩).

(٢) انظر: «الفوائد» لابن القيم (ص٥٣)/ ترتيب علي الحلبي.

(٣) مسلم (٢٥٧٧).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وهو صحيح، انظر «الصحيحة» للألباني (١٢٢٠).

(٥) أخرجه ابن ماجه (٣٨٠٣)، وهو حسن بشواهده، انظر «الصحيحة» (٢٦٥).

(٦) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٥٣٨)، وحسنه الألباني: «الصحيحة» (٢٩٥٢).

(٧) أخرجه الترمذي (٣٣٨٣) وابن حبان (٨٤٦)، وإسناده حسن، انظر «صحيح موارد الظمآن» للألباني (٢٣٢٦).

(٨) رواه مسلم (٢٦٦٣).

(٩) رواه البخاري (٥٩٨٥) ومسلم (٣٥٥٧).

(١٠) رواه أحمد (٨٨٥٥)، والترمذي (١٩٧٩)، وهو صحيح، انظر «الصحيحة» (٢٧٦).

(١١) حديث حسن أخرجه الترمذي (٢١٣٩) وغيره.

(١٢) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٥١٧).

(١٣) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٥٤٠)، وانظر «شرح الطحاوية» لابن أبي العز (١/ ١٢٩)، و«فتح الباري» لابن حجر (١٠/ ٤١٦).

(١٤) رواه البخاري (١٢٩٤) ومسلم (١٠٣).

(١٥) انظر «مختصر الصواعق» (ص١٩٤)، و«تيسير الكريم المنان» للسعدي (ص٥٥٨ ـ ٥٥٩).

(١٦) حديث صحيح: رواه أحمد (٢١٩٢٢) وأبو داود (٤٦٩٩)، انظر «ظلال الجنة» للألباني (١/ ١٠٩).

(١٧) ويقال «الدُّؤَلي» و«الدِّئلي»: قاضي البصرة المعروف، انظر «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٨١ ـ ٨٦).

(١٨) رواه مسلم (٢٦٥٠).

سببُ الصَّلاح

❁ قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ:

«ومن تدبَّر أحوالَ العالَمِ وجدَ كلَّ صلاحٍ في الأرض؛ فسببُه توحيدُ الله وعبادتُه وطاعةُ رسولِه ﷺ؛ وكلُّ شرٍّ في العالم وفتنةٍ وبلاءٍ وقحطٍ وتسليطِ عدوٍّ وغيرِ ذلك فسببُه مخالفَةُ الرَّسول ﷺ والدَّعوةُ إلى غيرِ الله، ومن تدبَّرَ هذا حقَّ التَّدبُّر وجدَ هذا الأمرَ كَذلكَ في خاصَّةِ نفسِه، وفي غيرِه عُمومًا وخُصوصًا، ولا حولَ ولا قوَّة إلَّا بالله».

[«مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢٥)]



مساجلة شعرية

تواعد الأديب العبقري الأستاذ حمزة بوكوشة والشَّاعر الكبير محمَّد العيد بمقهى من المقاهي الشَّعبية (مقهى القلاتي)، وكان يوم الموعد يوم مطرٍ، فتأخَّر لذلك الأستاذ محمَّد العيد عن الموعد إلى أن يئس صديقه الأديب من قدومه، فأخذ قلمه وأنشأ أبياتًا في معاتبته؛ فقال:

ما كنتُ أحسِبُ أنَّ الخُلْفَ شِيمَتُكُم
حتَّى يؤخِّرَكم عن وعـدِكـم مـطـرُ
إنْ لـمْ تَـجـيـئُـوا بأعـذارٍ مسـلَّمـةٍ
أَقُلْ ـ بِرُغْم الإخَا ـ: هل مَسَّكم بَطَرُ

وعند إتمامه للبيت الثَّاني أقبل الأستاذ فوجده يُتمُّ المكتوب، فقرأ البيتين، فكتب تحتهما ارتجالًا:

ما مسَّني بَطَـرٌ، بل مـسَّني مَـطَـرُ
لكـنَّـني رُغْم هـذا جـئتُ أعتذِرُ
هيهاتَ أتركُ أحبَابي وأهجُـرُهُـم
لا زُهدَ لي في أحبَّائي وإنْ هجَرُوا

فكانت هذه الواقعة اللَّطيفة سببًا طيِّبًا في هذه المساجلة الشِّعرية الجميلة.

[«البصائر» عدد ٢ شوَّال ١٣٥٤ الموافق لجانفي ١٩٣٦].



وصيَّة العلأمة الإبراهيمي للشَّباب

❁ قال الشَّيخ البشير الإبراهيمي ـ رحمه الله ـ:

«والشَّباب المحمَّدي أحقُّ شباب الأمم بالسَّبْقِ إلى الحياة، والأخذ بأسباب القوَّة؛ لأنَّ لهم

من دينهم حافزًا إلى ذلك، ولهم في دينهم على كلِّ مَكْرُمَةٍ دليلٌ، ولهم في تاريخهم على كلِّ دعوى في الفخار شاهدٌ.

أعيذُ الشَّباب المحمَّدي أن يُشْغِلَ وقتَه في تِعْدَاد ما اقترفه آباؤُه من سيِّئات أو في الافتخار بما عملوه من حسنات، بل يبني فوق ما بَنَى المحسنون ولْيَتَّقِ عثرات المسيئين.

وأُعيذه أن ينام في الزَّمان اليقظان، أو يَهْزَلَ والدَّهر جادٌّ، أو يرضى بالدُّون من منازل الحياة.

يا شباب الإسلام! وصيَّتي إليكم أن تتَّصلوا بالله تديُّنًا، وبنبيِّكُمْ اتِّباعًا، وبالإسلام عملًا، وبتاريخ أجدادكم اطِّلاعًا، وبآداب دينكم تخلُّقًا، وبآداب لغتكم استعمالًا، وبإخوانكم في الإسلام ولِدَاتِكم في الشَّبيبة اعتناءً واهتمامًا، فإنْ فعلتم حُزْتُمْ منَ الحياة الحظَّ الجليلَ، ومن ثواب الله الأجرَ الجزيلَ، وفاءت عليكم الدُّنيا بظلِّها الظَّليلِ».

[مكة المكرمة: في ١ صفر الخير ١٣٧٢هـ]



الحث على تعلم العربية

❁ قال الشَّيخ مبارك الميلي في جوابٍ له على رسالةٍ بعث بها صديقُه:

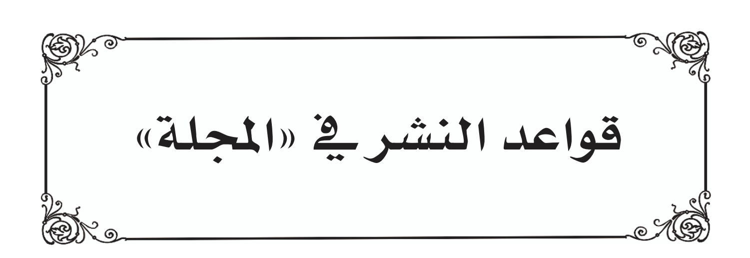
«الأديب الفاضل السَّيِّد عطيَّة بن مصطفى، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ وبعد: فقد أتتني رسالتكم وسُررت بها لصحَّة تراكيبها وسلامتها من اللَّحن، فحمدت الله على انتشار العربيَّة بينكم، فإنَّ فهم الدِّين متوقِّفٌ عليها، وما ذاق حلاوتها من لم يُرزق حظًّا وافرًا من العربيَّة، فعلى نسبة الرَّجل من العربية تكون نسبة مقدرته على فهم أصول الدِّين النَّقليَّة.

وقد كان ممَّا رجَّح به العلماء الإمام مالكًا على الإمام أبي حنيفة رضي الله عنهما أنَّ مالكًا أعلم منه بالعربية وأحوال العرب.

فلا تسأموا ـ أعانكم الله ـ من مطالعة كتب العربيَّة وأخبار العرب، وحرِّضوا إخوانكم على ذلك، وعلِّموا ممَّا علَّمكم الله ما وجدتم إلى التَّعليم سبيلًا، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه».

[من رسالة نادرة بخطِّ الشَّيخ مبارك الميلي بتاريخ ٨ صفر ١٣٥٠ الموافق لـ ٢٥/ ٦ سنة ١٩٣١م





قواعد النشر في «المجلة»

١ ـ أن تكون الموضوعات مطابقة لخطة المجلة، وموافقة لمنهجها.

٢ ـ أن يكون المقال متسمًا بالأصالة والاعتدال.

٣ ـ أن يُحرَّر المقال بأسلوبٍ يحقق الغرض، ولغةٍ بعيدة عن التكلف والتعقيد.

٤ ـ الدقة في التوثيق والتخريج مع الاختصار.

٥ ـ أن تكون الكتابة على الكمبيوتر، أو بخطٍّ واضح مقروء؛ وعلى وجه واحد من الورقة.

٦ ـ ألا يزيد المقالُ على خمس صفحات.

٧ ـ أن يَذكر صاحبُ المقال اسمَه الكامل وعنوانَه ورقمَ هاتفه، ودرجتَه العلمية إن وُجِدَت.

٨ ـ المقالاتُ أو البحوثُ التي لا تُنشر لا تُرَدُّ لأصحابها.